الفصل السادس

المحاكمة الرابعة

محاكمة.. قضاتها.. كتاب

تمهيد:

والقضاة هنا أصحاب أقلام، ينشئون الكتب، كما يكتبون الفصول، والمفروض فى كتاباتهم أن تكون كتابات نقدية، وأن يستوى ميزانها فلا تهبط إحدى كفتيه دون الأخرى، ولكن للأسف لم يكونوا جميعهم من الكتاب الذين يميلون إلى الاعتدال، ويحرصون على التزام الحق، فهؤلاء الكتاب الذين تناولوا رواية «أولاد حارتنا» بالعرض والدرس والنقد والتحليل، اختلفت موازينهم باختلاف أهوائهم ومشاربهم.. والواقع أن تلك الكتب والفصول تداخل فى تأليفها نفر ليسوا من أهل الفن أو النقد والأدب، وهم يصفون أنفسهم – أو يصفهم الآخرون – بأنهم رجال الدين، ومن ثم فهؤلاء لم يناقشوا الرواية – وهى عمل أدبى إبداعى – وليست كتابا فى الدين أو مؤلفا فى التاريخ – بما تستحقه من مناقشة، تبرز ما فيها من نواح إبداعية، وفن روائى، وتنام فى الأحداث، وما وراء ظاهرها المباشر من فلسفة خفية، ونظرة للكون شاملة، ومرام عديدة ليبرزوا بذلك مدى ما صادف الكاتب من توفيق، أو ما انحدر إليه من تهافت واضطراب.. لم يعرض الكتّاب من رجال الدين للرواية على هذا النحو المألوف فى النقد الأدبى، والدراسة الفنية للأعمال الإبداعية – وإنما تناولوها بالقول الجارح،.والتفسيرات غير الصحيحة، والتأويلات المنحرفة، بل ولم يقف بعضهم عند هذا الحد، بل تخطاه إلى لعن العمل، وتكفير المؤلف، بل والربط بينه وبين قدامى المستعمرين للشرق العربى رغم ما شهدته الدول العربية – منذ فترة طويلة – من تحرر واستقلال.

أما الكتاب من أهل النقد والفن والأدب، فقد عرضوا للرواية وفق أصول النقد المعروفة، وجاءت تقييمات الكثيرين منهم منصفة للرواية، معترفة بتوفيق المؤلف، وإن كانت لهم بعض ملاحظات وذلك أمر مقبول بالنسبة لكل عمل بشرى، يبدعه إنسان.

ومن هنا فقد جاءت أحكام الفريقين متناقضة:

جـاءت أحـكام الذين نظروا إلى الروايـة على أنها كتاب دينى تاريخـى وأوّلوا رموزها حسبما تراءى لهم.. جاءت الأحكام لا نقول قاسية، ولا نقول ظالمة، بل نقول أحكاما بُنيت على أساس من الفهم الخاطىء، والتفسير المنحرف، ومثل هذا الفهم وذاك التفسير لا يمكن أن يثمرا سوى البذىء من القول، والسيىء من الأحكام، والخبيث من النتائج.

ومع ذلك فقد كان هناك نفر ممن شـغلوا أنفسـهم بالدراسـات الدينية، وتعمّقوا فيها، ونشروا الكثير منها مما نال تقدير الجميع.. هؤلاء كان تعرضهم للرواية نافيا لأقوال السوء عنها، بل وقد عنون فاضل منهم مقالا له نشره منذ فترة بقوله: أفرجوا عنها – فضلا عن رأى فى تلك الرواية أنها قيمة إسلامية روحية – ومن الطبيعى أن يكون لهؤلاء جميعا كما سـيكون للأوائل ممن وصفوا أنفسهم بأنهم علماء الدين – عرض لما قدموا من كتب وفصول تناولت بالدراسة رواية «أولاد حارتنا».. أما الفريق الآخر من المتخصصين أو الدارسين للنقد الأدبى، ولهم إسـهامات فيه، فقد تناولوا الرواية بالعرض والمناقشـة والدراسـة، فجاءت أحكامهم منصفة إلى حد كبير..

ونحن فى عرضنا لهذا الحشد الكبير للكتب والفصول التى تناولت رواية «أولاد حارتنا» بالدراسـة والتحليل والنقد المجحف أو المنصف سـوف نحرص على الأمانة فى العرض، والموضوعية فى التحليل مع ضبط النفس عند حديثنا عن بعض الكتاب من الشيوخ.

ونظرا لأن كل صاحب قلم من أولئك الكتاب قد انفرد بإصدار حكمه – وقضائه – فيما ألـفّ مـن كتاب، أو قدّم من فصل من كتاب – تناول فيه رواية «أولاد حارتنا» بالدراسـة وانتهى إلى رأيه الخاص به – فإنه قد أقامه على ما تراءى له من أسـباب، وما تكشـفت رؤيـاه مـن مواضع يعدّها بمثابة الحيثيات لحكمـه أو لقضائه، وهو فى ذلك يختلف عمّن سـواه ممن سـبقوه أو لحقوا به – فلذلك فإننا نجد أنفسـنا مضطرين إلى تناول كل منهم على‌حدة فى مبحث مستقل.

علـى‌أن هنـاك ملاحظة أخيرة هى أن هذه المباحث لن تضم كل مـا كتب عن هذه الرواية، فتلك مهمة تعجز عنها طاقاتنا.. ومن ثم فإننا سوف نختار أهم تلك الكتابات – والتى أمكن لنا الحصول عليها – وقد كانت لها أصداء هنا وهناك.. وإننا لنرجو أن نكون قد وفقنا فى الاختيار، كما نأمل أن نكون قد وفقنا فى التزام الحيدة والموضوعية والإنصاف والله ولى التوفيق.

* * *

المبحث الأول

عن
«كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنا»
للشيخ عبد الحميد كشك
عرض، ومناقشة، وتحليل، وردّ

الشـيخ «عبد الحميد كشـك» من خريجى أصول الدين، ومنذ تخرجه وهو يعمل بوزارة الأوقـاف إمامـا وخطيبا لأحد المسـاجد فى كوبرى القبة بالقاهـرة – وقد تحدثنا عنه من قبل – فى الفصل الرابع – فنحيل إلى ما سبق لنا إيراده..

وكتابـه هذا لا يحمل أى تاريخ لإصداره، لكن المكتوب على غلافه أن رقم الإيداع بدار الكتب هو ٩٤/١٠٢٤٤ مما نقرر أنه ظهر فى عام ١٩٩٤م..

وللكتـاب غـلاف مصور، وقد اسـتخدم مصمم الغـلاف اللون الأحمر فـى كتابة عنوان الكتاب، وصوّر فى يمين الغلاف صورة للشـيخ المؤلف حاملا ريشـته وكأنها سـلاح وأمامه يقـف «نجيب محفوظ» على نحو متخاذل بينما الشـيخ منتصب القامـة ضخم القوام ويبدو وكأنه يهدد «نجيب» بما لاندرى! وعلى كل حال فالصورة غير مريحة، ولا تتفق مع جلال المناسبة..

والكتاب يضم مقدمة وعددا من الفصول تبلغ ستة عشر فصلا

وقد عرف الشيخ بالكتاب فى المقدمة، واتبع التعريف بعدد محدود من السطور جمع فيه كل ما يريده قوله فى كتابه الذى تبلغ صفحاته ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير..

١ - ففى المقدمة يقول الشيخ:

• بين أيدينا كتاب «أولاد حارتنا» للكاتب «نجيب محفوظ».

وهـذا الكتـاب قصة رمزية لا تخفـى فيها الرمـوز إلا خلف غلالة رقيقـة من الواقع الاجتماعى..

وخطورة هذا الكتاب التى تدمر وتضل عن سواء السبيل تكمن فى أنها تتعرض لقضايا مقدسة كما أن كاتب هذه الرواية تعرض لأشخاص الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته من «آدم» إلى خاتم الأنبياء ﷺ بل لقد جعل فى هذه الرواية شخصا يمثل الله عز وجل ولله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. كما أن صاحب هذا الكتاب قد بلغ من جرأته أنه صوَّر الله جل جلاله وأنبياءه عليهم الصلاة والسلام كما صوَّر الحقيقة الإيمانية على غير ما آمن على ذلك المؤمنون، وسوف نتعرض لهذا الكتاب بالردّ الإسلامى الصحيح حتى لا تزلّ أقدام، ولاتتعثر أقلام، وحتى لا ينفلت خيال الكاتبين؛ وسنعرض لهذا الكتاب بأسلوب موضوعى علمى – وهذا شرطى على نفسى وما توفيقى إلا بالله.

٢ - ويلخص الشيخ الرواية – من وجهة نظره – على النحو التالى:

(والآن نأتى إلى أهم وقائع تلك الرواية «أولاد حارتنا» وما اشتملت عليه من صور متنوعة اصطدمت بعقيدة الألوهية والرسالات السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه المصطفين الأخيار. فمن هؤلاء الأولاد، وما هى تلك الحارة؟ لقد ظهرت تحوّلات «نجيب محفوظ» الفكرية وتجدده العقلى على أعماله فى كل مرحلة، ومن هذه المراحل المرحلة الفلسفية التى عنى فيها بمناقشة قضايا كونية شاملة مثل قضية الوجود أو المصير الإنسانى والبحث عن اليقين المفقود.. ومرت هذه المرحلة برواية شديدة الضخامة نشرت بجريدة الأهرام مسلسلة فى نهاية عام ١٩٥٩م، ولم يشأ لها القدر أن تصدر فى مصر بعد ذلك، وكانت بعنوان «أولاد حارتنا» وقد أراد الكاتب إعادة تشييد العالم ببناء يوتوبيا خاصة على أرض الحارة التى ابتكرها وهى حارة مصرية تعيش على حافة المدينة – القاهرة – تحفّها الصحراء. حارة عمَّها الظلم والعسف نتيجة ممارسات الفتوات على أبناء الحارة من الكادحين والغلابة. يتتبع الكاتب تاريخ الحارة وكأنه يتتبع تاريخ البشرية منذ خلقها الله. «فالجبلاوى» هو سيد الحارة وصاحبها، وسكانها هم ذريته التى تسلسلت منذ أنشأ قصره الكبير فى نهاية الحارة. و«الجبلاوى» قابع فى القصر يتابع ما يجرى من ظلم وعذاب لأبنائه دون أن يفعل شيئا حتى يخرج من ذريته من يحاول إقامة العدل والإصلاح أمثال «جبل» ثم يليه «رفاعة» ثم يليه «قاسم» وهم الذين يمثلون الرسالات الثلاث الكبرى، ويستمر ما أقاموه من قيم العدل لفترة معينة بعدها سرعان ما يعود الظلم، و«أولاد حارتنا» تبشر فى جزئها الأخير

بعنـوان «عرفة» بالعلم حيث إن عصر العلم والاختراعات الجديدة يمكن أن تحل مشـكلة أولاد «الجبـلاوى»، وكان «عرفـة» الذى يرمز للمعرفة هـو المخلـص للحارة من كل ما لم تنجح المبادئ السابقة فى تحقيقه، فالعلم لابد أن يشمل كل شئ، وهو ما دعا إليه «نجيب محفوظ» عندما حاول بناء الكون على أرض الحارة أو حاكى بناء الكون، وتتبع تطوره منذ عصـر الأسـطورة حتى عصر العلم. وقد أحلّ المؤلف فـى «أولاد حارتنا» رؤيته العلمية فى الجزء المسمى «عرفة» الذى استقدمه الكاتب ليكون خليفة للأنبياء العظام).

٣ - ولنا ملاحظات على هذا التلخيص نوجزها فيما يلى:

وأول ما نلاحظه: هو أن الشـيخ أهمل الإشـارة إلى كيف كانت تمشى الحياة.؟ وكيف ظهـر أصحاب الأسماء التى أشـار إليهم؟ وكيف جذب هـؤلاء الناس إليهم؟ وكيف كانت حياة غمار الناس عند ظهور هؤلاء الثلاثة؟ وكيف كان الظلم السـائد، والتعسـف الشديد، والحياة البائسة التى كان يحياها الناس؟ وكيف فعل هؤلاء الثلاثه لإصلاح الحال؟ وكيف حققوا النجاح؟

والملاحظة الثانية: هى إهمال الشيخ تصوير حالة الحارة قبل ظهور كل من هؤلاء، وإلام صـارت الأوضـاع بعد ظهـور كل منهم، وما بذلوه من جهـود، وما قاموا به من جهاد حتى – تمكنوا – كل منهم بطريقته – من دفع الظلم، ومحو الإسـاءات التى كانت تلحق بهم.

والملاحظة الثالثة: ولاندرى كيف فاتت الشيخ... فقد حرص المؤلف – «نجيب محفوظ» – بالنسبة لكل من «جبل ورفاعة» على أن يؤكد أنه لم يكن ليهتم إلا بالحىّ الذى ينتمى إليه دون سـائر الأحياء.. أما «قاسـم».. فقد كان اهتمامه بالحارة كلها – بكل أحيائها – فلم يشر الشيخ إلى هذه الناحية.

والملاحظـة الرابعة: بشـأن تلخيص الكاتب لأمر «عرفـة».. فالواقع أن الفصل الذى خصصه «نجيب محفوظ» «لعرفة».. لم يحسـن الشـيخ تلخيصه، لأنه لم يحسـن فهمه.. فقد ذكر الشـيخ أن «عرفة» حقق ما لم يحققه سـابقوه.. وهذا ما لم يحدث، وما لم يذكره «نجيب محفوظ». فقد كان حديثه أن أمر «عرفة» قد انتهى إلى الفشل الذريع، لأنه اعتمد

على ما توصل إليه من «مخترعات» تعلن القوة، وتحقق النصر.. وكان فشله فى أول الأمر إذ وجد نفسه تحت رحمة «الناظر» الطاغية الأكبر الذى استغله لتحقيق مآربه والقضاء على «الفتوات جميعا»، ثم وجد نفسه فى نهاية الأمر هو وزوجه فى حفرة ويهال عليهما التراب.. ويشير المؤلف من طرف خفى إلى إهمال «عرفة» للجانب الروحى – الدينى – وأنه لا نجاح للعلم بدون الدين.. فهما توأمان للتقدم.. ورغم أن تلك كانت إشارة واضحة إلا أن «شيخنا» لم يتنبه إلى شئ من ذلك، واقتصر على عرض ما قام به «عرفة» دون عرض لما انتهى إليه «عرفة».. وأسباب تلك النهاية..

والملاحظة الخامسة: أن التلخيص بهذه الصورة يهدد أهم ما فى الرواية وما تقوم عليه من أن كل صاحب فكر أو رسالة إنما عليه أن يهتم بالبشرية ويعمل على إسعادها بما يبثه فى النفوس من قوة إيمان بالعدل والمساواة، وبما يحققه على أرض الواقع من جعل تلك المعانى حقائق ملموسة.. وهى أمور يكشف عنها تسلسل الأحداث ولكنه لم يلق ثمة اهتمام من الشيخ.

والملاحظة السادسة: هى أن كل ما أورده الشيخ فى مطلع الفصل الثانى الذى عنونه بعنوان: عرض ومقارنة من حديث عن «سلامة موسى» هو قول خارج عن موضوع العمل الروائى «أولاد حارتنا» وكذلك فإن كل ما أورده وفصّله من حديث قيِّم عن الذات الإلهية ومن أبحاث ممتعة عن قدراتها وصفاتها.. إلى آخر ما هنالك هو حديث طيب، ولكنه منبتّ الصلة بالحديث عن «أولاد حارتنا» فهى عمل روائى مستقل بذاته، ولا صلة له بمسألة الذات الإلهية، التى تجلّ عن كل وصف، وتسمو عن كل حديث.. أو على الأقل. لم يكن الشيخ قد ربط بعد بين الرواية وبين ما سوف يدّعيه وينسبه إليها – بغير حق وعلى غير سند – من حديث عن تلك الذات الخالدة.

٤ - دلالات الرموز عند الشيخ:

وإذ يقرر الشيخ فى الفصل الرابع، أنه فيما يلى الرموز التى استعملها المؤلف فى الرواية، وما تشير إليه من شخوص وأحداث، فقد حرص – بعد ذلك – على أن يورد قائمة من خمسين اسما مما تضمنته الرواية، ويورد مقابل كل منها ما تراءى له أن المؤلف إنما يقصد بهذا الرمز ذلك الشخص – أو ذلك المعنى – بالذات.. وقد سار على هدى

مــن تلك القائمة، وتعامــل فى كل ما أورده من مقولات علــى أن المؤلف إنما يعنى فى الحقيقة والواقع – ودون أدنى شــك أو ريبة، بتلك الرموز ذات الأشــخاص والأحداث التى حددها الشيخ.

وإذا انتهى الشيخ إلى ذلك، فقد اتخذ من هذه القائمة دليلا مؤكدا، وبيانا موثوقا منه، لا يأتيه الباطل من أى نواحيه.. ولســنا ندرى من أين جاءه هذا اليقين! والحقيقة أنه لم يفسِّــر، ولم يوضح، بل لم يشــر إلى ســنده فى ذلك، مكتفيا بإيراد الدليل تحت عنوان: «دلالات الرمــوز فى القصة» – دون أن يبيِّن لنا ســنده فــى ذلك، أو كيف انتهى إلى هذا التحديد، بل كيف يقطع بذلك على نحو لا يقبل المراجعة أو الجدال.؟!

والذى نعرفه – بل ومما يكرره الشــيخ نفســه – أنه فيما عدا النص الصريح أى الدلالة الواضحــة، فإن أى تفســير يقوم على التأويل لابد وأن يقــدِّم دليله وبرهانه على ما انتهى إليه. والدليل عند شــيوخنا الأفاضل – وبحقٍّ – إما أن يكون دليلا عقليا أو دليلا نقليا.. وعلى المفسِّــر أن يوضِّح فى الحالتين دليله، ويشــير إلى مصادره ولكن شــيخنا فى إعداده لهــذه القائمة التى تضم قائمة من خمســين رمزا، يعطى لكل رمــز منها ما يقابله من عالم الواقع، وأحداث التاريخ.. وردت مجردة من أى دليل، مفتقده لما يساندها من دليل عقلى أو دليل نقلى..

ويطلب الشيخ إلينا أن نأخذ بتفسيره، وأن نسلِّم بدليله، بما يحمله من دلالات لتحديد الرموز فى القصة، إيمانا منّا بصدق فراسته، وتسليما بقوة حدسه، ونفاذ بصيرته...

غير أننا، وللأســف الشــديد لا نرى مبررا واحدا لتصديق الشــيخ فيما ذهب إليه، ولــو أنه فعل كما فعل ســواه من حرصه على تقديم الأدلة مــن وقائع القصة لبادرنا إلى مناقشته، ولكنه لم يفعل، وأثر أن يقدم لنا فصل الدلالات لنأخذه قضية مسلما بها، لا تقبل مناقشة أو مراجعة.

ومــن هنــا حق لنا أن نقــرر أنه ليس لأحد أن يقطع بمثل هــذا القول، طالما أن المؤلف لم يذكــره، ولم يذكر ما يشــير إليه، بل إنه فى أحاديث كثيرة معه رفض التســليم بمثل هذه التفســيرات والتأويلات التى تأخذ الأمور بظواهرهــا ولا تتعمق ما قد تعنيه الحوادث والأحداث من معان خفية قد يختلف فهمها من قارئ إلى آخر، دون أن يكون هناك قطع بأن لكل منها دلالة واحدة ووحيدة.

٥ - عرض الأحداث.. والقول الحق.. وعقيدة الرسل:

يعود الشيخ فيخصص الفصل الخامس لعرض أحداث الرواية مقررا أن هذا العرض «مما يصادم عقيدة الألوهية والنبوات» وذلك على أساس ما أبداه في الفصل الرابع من «دلالات الرموز في القصة» وعلى ذلك وهو إذ يورد الأحداث منسوبة إلى أصحابها الذين ورد ذكرهم في الرواية، فكأنه يقول لا تأخذوا بهذه الأسماء وإنما عودوا إلى فصل الدلالات، وانسبوا ما ورد في التلخيص من أقوال وأحداث إلى أشخاصها الحقيقيين المذكورين في فصل الدلالات، فتعرفون بمجرد القراءة كم كان الكاتب متجاوزا فيما نسبه للأشخاص الحقيقين - في تقدير الشيخ - من قول أو فعل.. فذلك أمر لا يصح ذكره.. ورواية لا يحق لمؤلف مؤمن أن يرويها سواء كتب الرواية على نحو مباشر أو نحو رمزي.

على أن عرض الشيخ للأحداث في الفصل الخامس وإن تضمّن مزيدا من التفاصيل، إلا أن الشيخ في إيراده للأحداث لم يخرج عن منهجه الذي اتبعه في الملخص الذي أوردنا نصه في صدر هذا المبحث، ولم يزد عرضه التفصيلي - بعض الشئ - للأحداث عن الاكتفاء بأخذه الأحداث بظاهرها، دون أن يتعمق دلالاتها، بحيث إن الملاحظات الست التي أبديناها في البند الثالث - لم ينل منها العرض التفصيلي في شئ، ومرجع ذلك في تقديرنا هو أن الشيخ أصدر حكمه المسبق، ومن ثم فهو مشغول بالردّ على المؤلف الذي سمح لنفسه - في تقدير الشيخ للرواية - أن يجرى على ألسنة تلك الشخصيات ما أجرى من أحاديث وأن ينسب إليها ما روى عنها من أفعال وأحداث، بينما أنها - في تفسير الشيخ الذي لا يحيد عنه - شخصيات لها قداستها إذ أن المعنيّ بكل منها - عند الشيخ - هو الشخصية المقابلة في جدول الدلالات - وعلى هذا الأساس فهو يحاسب المؤلف ويسائله عن تجاوزه الحدود، وتخطّيه للحدّ المباح.. ومن ثم فالمؤلف حقيق بالمؤاخذة.. وكيف لا، وقد تحدث عن الذات الإلهية بما لا يصح، وأجرى على ألسنة الرسل من الأقوال ما لايجوز. أي أنه انحرف عن الجادة وأخطأ المنهج السليم..!!

ولا نجد بدا من أن نكرر القول بأننا مع الشيخ في ضرورة - بل فرضية - تقديس الذات الإلهية، وعدم الحديث عنها إلا بكل خشوع وتقديس، فهو سبحانه الخالق الباسط الرازق وكل الخلق قبضته، ولا يجوز لأي إنسان أن يتحدث عنه إلا بما هو أهل له من إجلال وتقديس..

وكذلك فإننا نكرر الإشـارة إلى الدور الكبير الذى أدّاه رسل الله وأنبياؤه إلى البشرية من هداية للحقّ وتبصير البشـر بسواء السبيل ومن ثم فالحديث عنهم هو حديث عن أشخاص موحى إليهم من ربّهم، وهم إنما يبلّغون رسالته فلا ينبغى لبشر أن يتحدث عنهم إلا بما يتفق مع مالهم من جلال وإكبار.

ونحـن إذ نؤمن بذلـك عن صدق وإيمان، فليس ثمة ما يمنعنا من القول بأن ما ورد فى الروايـة من أقوال وحـوارات وأحداث، لم يخرج عن ذلك من قريب أو من بعيد، فالمؤلف لم يتحدث فى روايته إلا عن بشـر من البشـر، ولم يرو إلا أحداثا قد وقعت – أو تخيل وقوعها – فى دنيا البشر.. وليس للشيخ أن يفرض علينا – أو على المؤلف – حتمية الأخذ بجدول دلالاته التى أوردها عن خمسـين شـخصية وحدث مما وردت فى الرواية وأعطاها اسما مقابلا يحاول أن يفرضه علينا.. وهو فى هذه المحاولة فاقد السـند، منعدم الحجة، ونكتفـى بهذا القدر فى المرحلة الراهنة حيث نرجىء تفسـيرا لأحداث والتعريف بحقيقة الرواية إلى المباحث التالية.. وإلى الفصل الأخير الذى نورد فيه فصل الختام.

* * *

٦ - الردّ التفصيلى على الرواية:

وفى الفصول التالية يتحدث الشـيخ طويلا – عن الذات الإلهية – ويتسـاءل: كيف يجيز هذا المؤلف أن يتحدث عنها بهذه البساطة.. ثم يورد ذكرا تفصيليا لأنبياء الله ورسله ومـا لاقـى كل منهم من عنت قومـه، وما أفلح فى أدائه من رسـالة.. متعجبا كيف ينكر «نجيب محفوظ» «القدرة الإلهية» وكيف يتحدث عن الذات الإلهية حديثه المسـموم منكرا لما لتلك الذات من قداسـة، لأنها هى ذات الكون ومصدر الوجود.. وقد بعث الإله القادر برسـله لتهـدى الناس إلى الخير، فكيـف يتجرّأ مثل هذا الكاتب فيلقـى بحديثه متناولا الذات الإلهية بالنقد مجريا عليها ما يجريه على البشـر من أحكام؟ وكيف يتجرأ فيهبط بمقام الرسـل والأنبياء إلى الدرك الذى يجعلهم يتصرفون بما نسبه إليهم من تصرفات، بل ويرتكبون العديد من الانحرافات.؟ ألم يقرأ القرآن؟ ألم يقرأ سـورة النحل بالذات ويلمّ بما تدل عليه من معجزات وما تحويه من أدلة وبراهين على وجود الله وقدرته؟

ويسترسل الشيخ فى بيان قدرة المولى عز وجل، ويطيل فى الحديث عن الرسل ومعجزاتهم ورسلهم. ثم يعجب ويتعجب من مؤلف يأتى آخر الزمان ليسخر من العقيدة، ويتناول المقدسات بما لا يرضى مؤمنا صادق الإيمان؟

• فلا حول ولا قوة الا بالله..

بل ويربط بين هذا المؤلف وبين من يحيكون المؤمرات ضد الإسلام ومن يتنكرون لصحيح القرآن، ثم يقول قولا غير صحيح وهو أن منح «نجيب محفوظ» تلك الجائزة العالمية لم يكن إلا لمشاركته فى تلك المؤامرة ولأنه بروايته قد نال من الإسلام.. بل إن كتابته لتلك الرواية كانت هى المبرر الوحيد لمنحه تلك الجائزة.. هذا وقد نشرت الصحف – ونقلنا عنها – نص بيان لجنة الجائزة، وقد أشارت إلى تلك الرواية كما أشارت إلى غيرها من إبداعات الرجل، بما يقطع بأن الأمر يخرج عن نطاق المؤامرة والتآمر.. وحاشا «لنجيب محفوظ» أن يشارك فى مؤامرة تنال من عقيدته الصحيحة!

وما أحسب أننا فى حاجة إلى أن نؤكد أمرين:

أولهما: أن كل ما ذكره الشيخ عن قداسة الذات الإلهية وعن ارتفاع منزلة رسل الله وأنبيائه هو قول حق لا ننكره ولاينكره إنسان صادق العقيدة، سوىّ التفكير، بل إن ما قاله الشيخ مما ينتهى إليه الفكر السليم، والنظرة الصادقة.. وهى أمور يسلم بها المؤلف تمام التسليم.

ثانيهما: أن الرواية لم تمس شيئا من ذلك كله، ولم تتعرض للذات الإلهية أو للأنبياء بما يسىء أو بما ينال مما يلزم لهم من تقديس وإجلال.. وأنه لا سبيل إلى مثل هذا القول الفاسد الذى قال به الشيخ إلا بالتسليم بسلامة «جدول الدلالات».. وهو قول غير سليم لأنه يقوم على تفسير غير صحيح وتأويل غيرصادق. وكلا التفسير والتأويل لا سند له من واقع أو منطق.. اللهم إلا إذا أخذنا بما أخذ به الشيخ من أحادية النظرة، وأن ما يقوله الشيخ هو الحقّ الذى لايقبل نقاشا أو جدلا، لأنه صادر عمن لا يخطىء التقدير، لأنه الملهم الصادق الأمين!! وما نعتقد أن فضيلة الشيخ – رحمه الله – كان بهذه الأوصاف التى لم تتوافر إلا للأنبياء والرسل.. ونسأل الله له الغفران بما أساء إلى «نجيب محفوظ»، كما نسأل له المثوبة على ما عرض من حديث ممتع وشامل عن الذات الإلهية وعن رسل الله وأنبيائة.. والله ولى التوفيق.

٧ - وبعد:

• فهل أوفينا القول حقه؟

• وهل أصبنا فيما أبدينا من أحكام وما انتهينا إليه من آراء؟

فى الواقع هناك صفحات مضيئة كتبها الدكتور «جابر عصفور» فى تحليل هذا الكتاب ضمن عرضه للحديث عن رواية «أولاد حارتنا» وما نحب أن نترك هذه الصفحات دون عرض واف..

ولكننا نؤثر أن نرجىء ذلك إلى المبحث الذى نتناول فيه مؤلف ذلك الناقد المبدع فيما سوف نورد من مباحث هذا الفصل.. وسوف نشير فيه إلى ما أورده بشأن شيخنا الكريم..!

* * *

المبحث الثانى

عن
جوانيات الرموز المستعارة
لكبار «أولاد حارتنا»
أو نقض التاريخ الدينى النبوى

للدكتور/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعنى

تمهيد:

والكتاب نشـرته مكتبة وهبه – الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م – وعلى ما يبدو من الدرجة العلمية التى تسـبق اسـم الكاتب، ومن أسلوبه فى البحث، وطريقته فى الدراسة أنه أحد أساتذة جامعة الأزهر – وليس من شك فى أنه بذل فى كتابه جهدا كبيرا، وقد أبدى رأيه وقدّم دراسـته على نحو جيِّد. فقد التزم الموضوع الذى يتناوله، ولم يتركه إلى سـواه وكان عـف اللسان، مستقيم العبارة، لا ينساق مع العبارات والتعبيرات إلى غير مدى، بل يلتزم الحدود المعقولة.

ومع ذلك فنحن لا نتفق معه فيما انتهى إليه، بل ونخالفه على طول الخط، ونرى أن نقطة البداية عنده هى التى جعلت مساره ينحرف عن جادّة الصواب، فهو لم يقرأ كتاب «نجيب محفوظ» على أنه رواية أدبية تقوم بصفة أساسية على الخيال الخصب الذى يبتدع الشـخصيات، ويجرى على ألسنتها ما يتراءى لإبداعه من أقوال وحوارات، وينسب إليها من الأفعال والتصرفات ما يتفق من منهاجه فى سير الأحداث وتطور الأمور وصولا إلى نتائج محـددة.. فهو المبدع لروايته، المؤلـف لأحداثها، الكاتب لحواراتها، وهى عمل من وحى فكـره، وثمرة خياله. صحيح أنه قد يتأثر فيما يرسـم بأحـداث من الواقع، أو بوقائع من التاريخ، ولكن الأمر لا يعدو مجرد التأثر، وليس النقل الحرفى إلى عالم الواقع لما جرى فى عالم الحقيقة أو لما يجرى أو جرى من أحداث التاريخ.

وأخرى يهمنا أن نشـير إليها، وهى أن ما يريد المؤلف أن يعبِّر عنه من أفكار لا يمكن أن يؤخذ على نحو مباشـر من سـير الأحداث فى الرواية إذ لابد من محاولة من القارىء لاسـتبطان الأحداث، ومحاولة النفاذ ليدرك ما يريد المؤلف أن يعبر عنه أو يوحى به إلى قرائـه ومريديـه.. ولا يتصور أن يتفق القراء عند معنى واحد أو مفهوم محدد – فبقدر ثراء العمـل، وارتفـاع منزلة المؤلف الفنيـة والإبداعية تختلف المفاهيم وتتنـوع النتائج وتتعدد التفسـيرات.. ولكل اتجاه سـنده مما تضمنتـه الرواية من أحداث، ومما ورد علىألسـنة أشخاصها من أقوال وحوارات.

ولا نود أن نسبق الأمور، فما ذكرناه هو مبادىء عامة، ومفاهيم أولية بالنسبة لقراءة الأعمال الإبداعية وبخاصة القصص والروايات والإبداعات الشعرية سواء كانت قصائد أو مسرحيات.

والآن فلنمض إلى هذا السفر، نطالع ما فيه، ونمضى مع كاتبه فى صفحاته التى بلغت مائتـين وسـتا وثلاثين صفحة.. من القطع الكبير.. تدور كلهـا حول رواية «أولاد حارتنا» ولا يفوتنا أن نشـير إلى ما يعلو صفحة الغلاف من أن هذا الكتاب هو التاسـع من سلسـلة «لابد.. من دين الله.. لدنيا الناس».

* * *

سـوف نعـبِّر عن صاحـب الكتاب – الدكتـور «المطعنى» – بالكاتـب. ونعبر عن المؤلف – «نجيب محفوظ» – بالمؤلف. وعن «أولاد حارتنا» بالرواية.. وذلك تحاشـيا للاختلاط، وللتكرار.

* * *

١ ـ انطلاق الكاتب من أفكار مسبقة:

يذكـر الكاتب أنه قرأ الرواية للمرة الأولى علـى عجل، ثم أعاد قراءتها مرتين أخريين ويضيف قوله: «تكوَّنت لدىّ فكرة واضحة من خلال قراءة الرواية من المرة الأولى.. وتأكدت تلك الفكرة فى صورة أوضح وأثبت من القراءات التالية.. وازددت يقينا بصدق الفكرة التى تكونت لدى من أول مرة، وظفرت بالأدلة القاطعة على صدقها من خلال ما جاء فى الرواية من كلام المؤلف نفسه..

ويورد بعد ذلك قوله:

كتب المؤلف الرواية عن موضوع احتفظ به فى طوايا نفســه، ثم اختار الأسلوب الرمزى وســيلة للتعبير عنه، فلا تكاد ترى له لفظا استعمل فى معناه الوضعى أو معناه المجازى، بل انتقى ألفاظه بذكاء خارق فى شــكل رموز يصعب علــى القارىء العام إدراك ما وراءها من معان ومقاصد، فكل معنى من معانيه التى لا يريد الإفصاح عنها تجده مغلفا فى غلاف رمــزى شــفيف أو كثيف! ثم هو كثــيرا ما يلجأ إلى الهروب أو الإحجــام كلما أحسّ بأن المعنــى الــذى يواريه خلف الرموز يكاد أن يظهر؛ فإذا أحس بذلك ســرعان ما ينقضّ إلى الــوراء للتمويــه والإفلات.. وهذا ما يمكن أن نطلق عليــه: الفرّ بعد الكرّ، أو الإحجام بعد الإقــدام. ولذلك فإن فهــم المعانى الخبيثة فى الرواية، وكذلــك المقصود العام منها يتوقف – أى الفهم – على العناصر الثلاثة الآتية:

أولا: العلم بمادة الموضوع الذى صاغ روايتة حوله.

ثانيا: فكّ الرموز التى شاعت فى الرواية ومعرفة دلالاتها خارج الرواية.

ثالثا: التمكن من مواضع الكرّ والفرّ، أو الإحجام بعد الإقدام للتمويه على القارىء وإثارة موجات من الضباب المعتم أمام ناظريه.

- ولذلك فإن فهم «أولاد حارتنا» يصعب على القارئ العادى.
- ويخطو الكاتب بعد ذلك خطوات فى سبيل عرض فكرته فيذكر:
- فهمنا أمرين بينهما تناسق الأسباب والمسببات..

الأمر الأول: «فهمنا «جوانيات» الأستاذ «نجيب محفوظ» حين خط بمشاعره ووجدانياته فى هذه الرواية قبل أن يخطّها سطورا على الورق بقلمه».

الأمــر الثانى: «فهمنا رأى أو مذهب.. «نجيب».. فــى الموضوع الذى تحدث عنه من وراء ســتار فى الروايــة، ثم مذهبه فى البديل عنه – عن الموضــوع – ومصير كل منهما، وهذان الأمران بينهما تناســق الأسباب والمسببات. فالأمر الأول – الجوانيات – كان سببا فى الأمر الثانى لا محالة».

ولا يتركنا الكاتب لتساؤلاتنا عمّا يقصد بالجوانيات.. بل يزيد الأمر بما يورده من قول تحت ذات العنوان «الجوانيات» إذ يذكر:

كان الأستاذ «نجيب» حين كتب روايته ينتابه قلق فكرى فلسفى حول نظرية المعرفة. وهى إحدى القضايا الحيوية التى طرقها الفكر الفلسفى منذ أقدم العصور، ومؤلف الرواية واحد من رجال الفلسفة، ومن المعروف أن نظرية المعرفة هذه تتعلق بما وراء الطبيعة أو «الميتافيزيقيا» وبعبارة أوضح: الأمور الغيبية، كحقائق الإيمان بالله، ونشأة الكون والإنسان، وهل للكون خالق مُدبِّر أم خالق غير مُدبِّر، أم ليس له خالق على الإطلاق؟ وقد نتج عن هذا الاختلاف حول مصدر المعرفة ثلاثة مذاهب:

الأول: أن مصدر المعرفة هو الدين، وطريقه الوحى وكلام الرسل.

الثانى: أن مصدر المعرفة هو العقل، وطريقه التأمل المجرد.

الثالث: أن مصدر المعرفة هو الحواس الخمس، ومجالها المادة المحسوسة، وطريقها التجارب والملاحظة والاستنتاج. أو بعبارة أوجز: مصدر المعرفة هو العلم الحديث

ويمضى الكاتب قائلا:

«ومع إزهار حركة العلوم الحديثة، وما نتج عنها من اكتشافات ومبتكرات مذهلة، أحدثت فى الفكر انقلابا، وفى الحياة تطورا، مع هذا الجديد كله أكبر الناس العلم الحديث، وفتنوا به. وبخاصة شرائح معينة من المثقفين، ومنهم الأستاذ «محفوظ»، وعلقوا عليه آمالا لا نهاية لها، وبدا خط الدين عند هؤلاء فى العد التنازلى، فزهدوا فيه ونزعوا الثقة منه، وأداروا له ظهورهم عن سوء فهم. واختلافهم حول مصدر المعرفة ترتب عليه أمر آخر شديد الخطورة وهو ربط الالتزام والتوجيه فى الحياة بما هو مصدر للمعرفة.. فمن ذهب إلى أن الدين هو مصدر المعرفة جعل له السيادة على شئون الحياة كبيرها وصغيرها.. ومن ذهب إلى أن العقل هو مصدر المعرفة رفعه إلى درجة الألوهية.. ومن ذهب إلى أن العلم الحسّى الوصفى هو مصدر المعرفة، أسلم إليه الريادة والقيادة فى شئون الحياة.. هذه الأمور يعرفها «نجيب محفوظ» حق المعرفة قبل أن يكتب روايتة، وحين كتبها، وبعد أن فرغ من كتابتها. وكل كلمة فى الرواية تدل على أن كاتبنا الكبير كان حين كتب روايته يؤمن إيمانا قويا بالاتجاه إلى المذهب الثالث. وهو الولاء الكامل للعلم الحديث، والثقة المفرطة فيه، مضافا إليه شعبة البحث العلمى التجريبى زاهدا كل الزهد فيما سواه، وبخاصة المعارف الدينية والتوجيه المنبثق عنها، هذه هى «جوانيات» الأستاذ «نجيب محفوظ» حين كتب روايته منذ أكثر من ثلاثين عاما...».

٢ـ من أين للكاتب أن يصدر تلك الأحكام القاطعة:

• هذه هى الأحكام القاطعة التى أصدرها الكاتب:

فمن أين له أن يجزم بما جزم به من أن الأستاذ «نجيب محفوظ» مفتون بالعلم الحديث وأنه يعلّق عليه آمالا لا نهاية لها، وأن حظ الدين عنده بدأ فى العدّ التنازلى..؟

ومن أين له أنه يؤمن بأن مصدر المعرفة هو الحواس الخمس، وأنه قد أسلم للعلم الحسّى الوصفى الريادة والقيادة.. وأنه لم يسلم أى قيادة للدين؟

ومن أين للكاتب أن يؤمن بأن المؤلف عندما ألفّ روايته إنما كان يؤمن إيمانا قويا بالاتجاه – أو المذهب الثالث – أى الولاء الكامل للعلم الحديث والثقة المفرطة فيه؟

من أين له ذلك كله؟

لقد قرأ الكاتب الرواية وهو مؤمن بهذه الأحكام القاطعة التى أصدرها سلفا لا نقول بمجرد أن قرأ الرواية القراءة المتعجلة، بل نقول أنه مؤمن بها حتى قبل أن يقرأ تلك الرواية.. ودليلنا على ذلك هى قول الكاتب نفسه (ص ٣ من كتابه):

وكاتب هذه الدراسة، كان ممن كتب عنها (عن الرواية) ناقدا لا معجبا، حين نشرت له جريدة النور الإسلامية مقالا ضافيا على صفحة كاملة، وكنت حين كتبت ذلك المقال لم أقرأها قراءة مباشرة، وكتبت ما كتبت اعتمادا على قراءات عنها لا فيها، وكان من قرأت لهم عنها من أثق فيهم وفى نزاهتهم وموضوعيتهم، وصدقهم وإخلاصهم لها

فانظر.. الكاتب يكتب مقالا عن الرواية.. وهو مقال ضاف على صفحة كاملة من الجريدة، ثم يقرر أنه لم يكن قد قرأ الرواية لا كاملة ولا ناقصة، وإنما قرأ عنها ومع ذلك يجيز لنفسه أن يكتب عنها مقالا بهذا الحجم مقررا أنه كتبه ناقدا لا معجبا..!

وما أعتقد أننا قد جاوزنا الحق أو الصواب حين ذكرنا أن الكاتب انطلق من أحكام مسبقة تكونت لديه، فراح يكتب وينتقد ويحلّل ونقطة البداية عنده أن المؤلف لا يعتقد أن مصدر المعرفة هو الدين، لأنه كان لديه فى العدّ التنازلى.. وإنما مصدر المعرفة لديه هو العلم الحديث وحده دون سواه.. من أين للكاتب أن يؤكد ذلك؟ لا ندرى.. ولا هو نفسه يدرى، إنما هى مقولات ينساق وراءها، ويرددها فى تسليم غير مبرر، ولا أساس له..

ثـم هـذه المقدمة الطويلـة التى قدم بها لحديثـه والتى خصَّصها للغـة الرواية التى لا يسـتطيع القـارىء العادى أن يفهمها لأن ألفاظها مختارة بدقـة وعناية، ولأنه كتبها عن موضوع احتفظ به لنفسه. وأن القارىء لا يكاد يقرأ لفظا استعمل فى معناه الوضعى أو معناه المجازى.. بل إنه انتقى ألفاظه فى شكل رموز يصعب على القارىء إدراك ما وراءها.

يـاالله! فقـد احترنا مـع الكاتب.. إذ كيـف يختار المؤلـف ألفاظه بدقـة وعناية – وهذا صحيح – ثم تأتى بعد ذلك عسـيرة الفهم على القارىء العادى.. إذ أنها فى شـكل رموز يصعب علىذلك القارىء إدراك ما وراءها؟ أودّ أن أؤكد للكاتب أن الرواية وإن صيغت بألفاظ تم اختيارها بدقة وعناية إلا أن فهمها ميسور، وإدراك معناها المباشر أمر يسهل وفى بساطة على القارىء العادى، وإلا ما طالعها آلاف من القراء دون أن يحتاج أى منهم لا إلى قاموس أو معجم، فاللفظ الدقيق أيسر فى بيان المقصود منه ومن معناه المباشر..

أما ما يقرره الكاتب من أن المؤلف كتب روايته «عن موضوع احتفظ به فى طوايا نفسه» فذلك قول لا معنى له، وليس هو بالأمر الذى انفرد به مؤلف تلك الرواية، لأن كل مؤلف يكتـب عن «موضوع يحتفظ به فى طوايا نفسـه» ثم يختار للتعبـير عنه وتوصيله للقراء ما ينتقـى مـن عبارات وتعبيرات، ويصوغه فيما يواتيه إبداعـه من حوادث وحوارات، وبما تسعفه قريحته من حوارات، ثم إن المؤلف لا يأخذ بيد القارىء ليشرح له مراده، أو ليبين له مقاصده وأهدافه بل يترك له الحرية كاملة فى أن يفهم من العمل ما يشـاء وأن يفسـر الأحـداث على النحو الذى تكشـف عنه بديهته.. ومن الأمور المسـلم بها أن ذلك الفهم تختلف مشاربه، ونادرا ما تتفق عند معنى محدد لا تعدوه..

ونمضـى – من بعـد – مع الكاتب فيما يوضحه – أو يعرضـه – من بيان لما يقدره للرواية من أهداف..

.....

* * *

٣ ـ الهدف من وضع أولاد الحارة فى رأى وتقدير الكاتب:

وإذا كانـت الأيديولوجية التى افترض الكاتب قيامها وتوافرها لدى المؤلف هى المنكرة للديـن، وكان ذلـك القول من الكاتب هو محض افتراض مسـبق تكوّن لديه دون أن يكون هناك مايؤيده بالنسـبة للمؤلف من سلوك أو كتابات أو حوارات.. بل إن الرواية نفسها لا

تدل على شيء من ذلك بالمرة حتى لوسلمنا بما ذهب إليه الكاتب من تفسير للرموز، فحتى مــع الأخذ بهذا التفســير نجد للدين دورا كبيرا، وريــادة عظمى فيما لو قرئت الرواية بنيّة صافية، وفهم سليم، بريء من الأحكام المسبقة التى لا سند لها، ولا دليل عليها.

وفــى ضوء ما قدمــه الكاتب من تحديد لأيديولجية المؤلــف.. كان منطقيا ألاّ يرى فى الرواية إلا أسوأ الأهداف، وأحطّ الغايات، على النحو الذى فصله الكاتب فى أقواله التى أوردها على النحو التالى.

«عرفنا مما سبق الأيديولوجية التى كانت تسيطر على المؤلف حين وضع الرواية الذائعة الصيــت.. ومعرفة تلك الأيديولوجية مهمة جدا فــى معرفة الهدف الذى وضع روايته من أجلــه.. هــذا الهدف – باختصار شــديد – هو تفشــيل دور الدين بوجــه عام فى حلول مشــكلات الحياة، وتحقيق الســعادة للناس فيها. وبعد وقوع ذلك التفشيل، من خلال ما ورد فى الرواية، يأذن المؤلف للعلم الحديث أن يطلّ برأسه إلى الوجود، ثم ينمو شيئا فشيئا حتــى يصبح عملاقا لا يقاوم وقادرا لا يعجز، ثــم يتمكن من القضاء على الدين متمثلا فى قتل أو موت «الجبلاوى»، ويهز مشاعر أولاد الحارة، بمخترعاته، المذهلة، فينحاز الناس إلى «عرفــة» و«حنش»، اللذين يمثلان العلم الحديث، ويفضلونه على الدين عيانا جهارا، وينخلعون عن الإطار الدينى النبوى فى وضح النهار..».

• ويخلص الكاتب من ذلك إلى قوله:

إن الأيديولوجية التى كانت تسيطر على المؤلف حين كتب الرواية، ثم هدفه من وضع الرواية، هو تفشيل الدين وإحلال العلم الحديث محله..

٤ ـ وهذا الهدف الذى حدده الكاتب غير صحيح وغير قائم على الإطلاق:

ذلك أن الرواية:::وإن كان فصلها الأخير عن «العلم»، فليس فى ذلك دلالة على فشــل ما سبق الفصل الأخير من فصول قامت على الإيمان بقوى روحية، وركائز معنوية، نجحت جميعها فى الارتقاء بمجتمع الحارة، وتحقيق الرخاء لأهلها، بل شهد عهد «قاسم» مساواة بين جميع أحياء الحارة، نجاحا لم يسبقه نجاح مثله. فلو سلّمنا مع القائلين بأن «قاسم» ومن ســبقه هم رموز للرســالات الكبرى، فإن عهود أصحاب تلك الرســالات كانت عهود خــير.. وإذا كان «عرفة» قد جاء ليمثـل العلم، فليس مؤدّى ذلك تفشــيل الدين فالعلم هو أحد ركائز الدين، ولم يدع للعلم ولم يحض عليه دين كالإســلام الذى رفع من شأن العلم،

لأنه دين علم، وليس هناك صراع بين العلم والدين على مدار فصول الرواية وحتى فى فصل «عرفة» الذى انتصر للعلم، لم يذكر الدين بسوء، وإن كان «عرفة» قد انفرد بالميدان ونال الحظوة، فإنه قد انتهى إلى أسوأ نهاية، ولم يتحقق له الانتصار الكامل، بل لقد جوزى أسوأ جزاء، ولقى أسوأ مصير..

ولا يمكن أن يقول أحد إنه على عهد «عرفة» قد مات «الجبلاوى»، وهو أمر لا يتفق مع الأديان، ويعللون ذلك بقولهم إن الإله خالد باق لا يرد عليه موت أو فناء.. والعاقل من يكون جوابه.. وهل كان «الجبلاوى» – فى الرواية – إلا بشرا من البشر، إن كل ما قام به وما يشهد به تاريخه – فى الرواية – لا يخرج عن أعمال البشر.. ومن هنا يأتى القول بأن الرواية عملت على تفشيل الدين قولا غير صحيح وغير مطابق لأحداث الرواية نفسها اللهم إلا إذا كان تفسير الشيخين: «كشك والمطعنى» هو القول الصحيح الملزم للجميع – وهو الأمر الذى لا نسلم به! وحاشى لله أن يكون ذلك..!

إن مقولة الشيخ «المطعنى» التى تحدد هدف الرواية، فى تفشيل الدين هى مقولة لا تجد لها سندا لا من منطق الرواية، ولا من فهم أحداثها فهما صحيحا، ولا دليل يساند هذه المقولة إلا من المقولة نفسها التى لا تقوم على منطق، وإنما تقوم على أحكام مسبقة أطلقها صاحبها حتى قبل أن يقرأ الرواية ويتعرف علىأحداثها، فكان من المستحيل عليه – وبمنطقه – أن يعدل عن رأيه الذى سبق له إبداؤه ونشره على صفحة كاملة.. دون أن يكون قد قرأ الرواية مباشرة..!

..والذى نخلص منه أنه سواء بالنسبة للمقدمات التى قُدم بها الكاتب لمقالته أو للنتيجة التى رتبُها عليها وأكد صحتها، فإنها جميعها لا تتفق مع الحقيقة ولا تستقيم مع الواقع، وليس من دليل يساندها، ولكنها – كلها – مقولات تقوم على الادعاء، وتستند إلى الأوهام والضلالات، ونستغفر الله من أن ننسب إلى شخص مبدع ومخلص هذه الادعاءات، فإن ذلك ظلم لا يرضاه المولى أحكم الحاكمين..!!

* * *

٥- جهد الكاتب فى حل الرموز:

وقد أجهد الكاتب نفسه فيما سماه «معانى» الرموز.. حيث ذكر فى صدر حديثه أن المؤلف صدّر روايته بمقدمة أسماها «افتتاحية» وصاغها فى عبارات شديدة الاختزال وفى الجدول التالى رصد لأهم ماورد فيها من رموز مع الإشارة إلى معانيها حسب دلالات المقام عليها.. ثم راح بعد ذلك يورد ما سماه «التدليل» على معانى تلك الرموز..

وسوف نتابعه فى إيراد أهم تلك الرموز، وما أورده من أدلة للتدليل على المعانى التى اختارها لتلك الرموز... والعجيب أن الكاتب هنا خالف السنة التى جرى عليها جميع علماء الدين الذين تخصصوا فى الشرح والتفسير إذ جرت العادة على أن يختموا أحاديثهم بقولهم «والله أعلم» إلا أن كاتبنا خالف هذه السنة، وأورد تدليله ودلالاته على أنها القول الفصل، الذى لا يأتيه باطل من أية ناحية من نواحيه، مع أن الواقع أن ما قاله لا يعدو أن يكون رأيا شخصيا، أو اجتهادا ذاتيا، أو حكما أصدره وكان ذلك - وباعترافه - قبل أن يقرأ «ملف القضية».

وسوف نورد فيما يلى ما ذكره الكاتب من:

- حل لأهم الرموز..
- ما أورده من أدلة بالنسبة لأهم ثلاثة رموز منها.
- وسوف نورد ما أورده بالنسبة لكل رمز على‌حدة.
- ثم نعقب على‌ذلك بالقول الذى نراه مناسبا.

٦- ما أورده الكاتب من حديث عن «افتتاحية الرواية»:

- يورد الكاتب ما رآه من رموز تضمنتها «الافتتاحية» وما توصّل إليه - بعلمه وجهده - من بيان لما يقابلها من معان.. فقال - لافض فوه -:
- الحارة: هى رمز للحياة الدنيا طولا وعرضا، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، عمقا وارتفاعا.
- وأولاد الحارة: هم الناس جميعا، منذ خُلق «آدم» وحواء، مضافا إليهم الملائكة والجن.
- و«الجبلاوى»: هو رمز الألوهية أو «الله» سبحانه عما يقولون، واعتزال «الجبلاوى» رمز به المؤلف إلى توقف الرسالات السماوية بعد الإسلام (هذا ما أورده الكاتب أوردناه بنصه مستغفرين الله).

أمـا البيـت الكبير: فإن سـياق الكلام – هنـا – يدل على أن المؤلـف أراد به «عرش الرحمن» وما فيه من أسرار قدسية، وغيبيات لا يعلمها إلا الله. وفى مواضع أخرى رمز به المؤلف إلى «الجنة» أو «رحمة الله».

والوقف: هو منهج الله فى الوجود، المتمثل فى الدين الذى ارتضاه بما فيه من عقائد، وعبارات، ومعاملات وأخلاق، وأوامر ونواه تحكم حركة الحياة.

والشـروط العشرة هى الوصايا العشر الجامعة لأسـس الفضائل الواردة فى سورة الأنعام الآيات: ١٥١ – ١٥٣.

وإدارة الوقف هى الاسـتخلاف فى الأرض، لإدارة شـئون الحياة – بعد الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، على هدى الله وما شرعه لعبارة من شرائع.

أما «أدهم وجبل ورفاعة وقاسـم»، فهم «آدم» و«موسـى» و«عيسـى» و«محمد» عليهم صلوات الله وسلامه.

• والحكايات هى التاريخ أو القصص الدينى النبوى.

• والمقاهى: هى أماكن تجمعات الناس، أو مراكز العلم والتعليم والإعلام.

• وشـعراء المقاهى: هم رواة التاريخ الدينى النبوى، والقصاصون والدعاة إلى الدين، أو هم حملة المعرفة الدينية بالذات، الذين ينقلونها من جيل إلى جيل، ويدخل فى ذلك كل وسائل التثقيف الدينى.

• والفتوات: هم المتسلطون، سواء كانوا حكاما أو سدنة دين.

• والنبابيت: هى آلات القمع، وسياط الاضطهاد والتعذيب.

* * *

وهكذا خلص إلى أن كل علم – أو رمز – إنما يقصد به المؤلف معنى مخالفا، وهو يرمز إلى دلالـة أخـرى، دون ما هو ظاهر وبيِّن من مطالعة النـص.. ولكن لم؟ وكيف؟ ومن أين خلص الكاتب إلى ذلك كله بالنسـبة لكبار الروايـة.؟ وهو – فى الافتتاحية – يكتفى من الرمـوز التى أوردها بثلاثة هى: الحـارة – أولاد الحارة – «الجبلاوى». حيث يذكر أنه يكتفى هنا بالتدليل على ثلاثة فيقدم كلا منها متبعا إياه بالأدلة التى خلص إليها واستدل

منها على صحة تفسيره. لكنه لم يقل لنا: لماذا أجهد نفسه فى افتراض وجود رموز وفى محاولة فك تلك الرموز؟ وهل كان ذلك كله ليثبت القضية التى افترضها سلفا – حتى قبل أن يقرأ الرواية – وهى أن غاية الكاتب من روايته هى إثبات «فشل الدين».. نحن نستغفر الله للكاتب من ذلك القول، كما نستغفره لأنفسنا من كل هفوة لسان، أو زلة قلم، لإيماننا بقوله ﷺ: (كل ابن «آدم» خطاء، وخير الخطائين التوابون).

والآن نستعرض سويا ما أقام عليه الكاتب براهينه بالنسبة للرموز الثلاثة التى اختارها من بين سائر ما تضمنته الافتتاحية من أعلام وأسماء سماها الكاتب «رموزا».

٧ - الحارة.. هى الدنيا:

وذلك فى تفسير كاتبنا «المطعنى» وهو يستدل بالتدليل على ذلك بأدلة ثلاثة نعرض لها، كما ذكرها:

الدليل الأول الامتداد الزمانى:

وذلك – وحسبما ذكر الكاتب – أننا قد «عرفنا عند فك الرموز أن «أدهم وجبل ورفاعة قاسما» هم على الترتيب: «آدم وموسى وعيسى ومحمدا» – صلوات الله عليهم – وستأتى الأدلة القاطعة على صحة هذا الفهم، وبين «آدم» وخاتم الرسل دهور طويلة لا يحصيها عددا إلا الله علام الغيوب، وهؤلاء لم يعيشوا فى حارة آدم، ولا متى هبط من الجنة إلى الأرض، فالحارة فى الرواية هى الدنيا بأسرها..».

وقد نسى الكاتب أننا بصدد عمل إبداعى، رواية فنية، إبداع روائى، مصدره خيال المؤلف، والذى لا يحاسب على مدى مطابقة ما يرويه لحقائق التاريخ، وإنما يكون تقييمه على أساس حبكة الرواية، وسموّ معناها، وروعة ما تصوره من أحداث، وإن صادف أنها يمكن أن يفهم منها أنها تتحدّث عن التاريخ المعروف، فذلك محض تشابه أو هو ليس الهدف المقصود والأساسى لدى المؤلف.

الدليل الثانى الامتداد المكانى:

ويذكر الكاتب أن «الرسل الأربعة الذين رمز إليهم مؤلف الرواية بـ: «أدهم»، و«جبل»، و«رفاعة»، و«قاسم» – عاشوا فى أماكن مختلفة من الأرض – منهم من عاش فى مصر،

وغيرها «كموسى» و«عيسى»، ومنهم من لم تطأ قدماه أرض مصر، وهما «آدم» أبو البشر، و«محمد» خاتم الرسل، وهذا – بدوره – ينزع عن الحارة معناها الشديد الضيق ويضفى عليها معنى واسع المدى، مترامى الأطراف؛ ممتد الآفاق.

وهو دليل يلحق بسابقه إذ يقوم على افتراض أن المؤلف إنما يعنى ما حدَّده له الكاتب من أسماء أو من معان لما استعمل من أسماء، وخلص من ذلك إلى أن المؤلف وقد عنى فى الحقيقة والواقع الأسماء التى حددها له الكاتب فنتيجة ذلك أنه يعنى بالحارة الدنيا بأسرها.. وتجاهل الكاتب أو تناسى أنه هو الذى قدَّم هذا التحديد لما سماه «رموزا» ثم أنه افترض صحته؛ ورتب على ذلك ما رتب من نتائج تقوم على أساس واه من أوهام الكاتب.

الدليل الثالث الامتداد الموضوعى:

وفى هذا يذكر الكاتب: أن المؤلف قد «أشار.. فى افتتاحيته إلى طبيعة الموضوع الذى تفاعلت وتضاربت أصداؤه فى الحارة، والصراع المرير بين أولادها؛ وقيام البيت الكبير شامخا فيها، وإحاطة الخلاء به، وترامى الصحراء حوله، والحكايات التى تُحكى فيها، واختلاف الرواة فى عرضها، إما حسب الأهواء، وإما حسب الانتماء الطائفى، وتعاقب الأجيال بين ربوعها، والحركات الصاخبة التى تموج فيها، إنه موضوع ضخم ومعقد، لاتتسع له إلا الدنيا بأسرها، لاحارة تشرق وتختنق بعشرات من الناس يسيرون فيها، أو عربتا كارو تقفان على جانبها».

إن نقطة البداية لدى الكاتب هى التى توجه تفسيراته وتأويلاته.. وتلك النقطة هى أن المؤلف إنما يروى قصة الخلق والخالق وسير الأنبياء من مفهوم معيَّن ولهدف محدد هما أن يثبت فشل الأديان، وهو تفسير لم يقم إلا فى ذهن الكاتب، وقد استوحاه من خياله أو أوهامه وراح يقيم على هذا التفسير ما هو غير مقبول من براهين.. ولسنا ندرى لم افترض فى الرواية هذه الحيل؟ ولم وصفها بهذا التحايل، مع أنها رواية فى غاية البساطة تروى قصة الإنسان أينما كان، تحركه غرائزه إلى الشر، فيجد – عند البعض – مشاعر من الخير تبغض إلى صاحبها نوازع السوء.. هكذا كان الإنسان وهكذا سوف يكون على مدى الزمان! فلم نضيِّق الدائرة؟ ونسدّ النوافذ؟ بينما الأمور منذ بدايتها سهلة وميسورة!

* * *

٨- وأولاد الحارة.. هم الناس جميعا:

الدليل الأول «آدم» أبو البشر:

بـدأت الرحلة – كما يقـول الكاتب – فى الرواية من قبل أن يهبط «آدم» من الجنة، ثم واصلت سـيرها عبر التاريخ القديم وانتظمت أربعة رسـل من ولد «آدم» بعثوا إلى الناس فى أزمنة وأمكنة جد مختلفة. وحين انقطع الوحى بمبعث «محمد ﷺ» بالرسالة الخاتمة، فلما بلغها وقضى نحبه، لم تعد البشـرية فى حاجة إلى رسـول جديد لاكتمال الدين كله بالإسلام.. ثم مرت حتى تأليف «الرواية» أكثر من ثلاثة عشر قرنا شهدت الدنيا فى أواخر هـذه القرون مولد العلم الحديث وازدهاره وأنباء غزو الفضـاء والتطوّر التكنولوجى فى كل مكان، أتكون هذه الأحداث الضخمة قد ولدت فى حارة إذ أوقف إنسان عند أحد طرفيها، رآه يقف على الطرف الآخر ؟

أو يكون أولاد هذه الحارة أولهم «آدم» أبو البشـر، ومنهم هابيل وقابيل ثم الرسل، ثم رواد النهضة الحديثة.. ثم..

هذا كلام له خبىء، معناه أننا ليست لنا عقول..

أولاد الحارة إذن فى «أولاد حارتنا» هم الناس جميعا فى أى مكان وأى زمان وجدوا، وليسـوا هم أولاد حارة «الجبلاوى»، ولا مصـر ولا قارة أفريقيا أكبر تجمع عمرانى تنتمى إليه مصر، أم حارة «الجبلاوى»؟ أو حارة «نجيب محفوظ»؟

تلك هى الأسئلة التى يختم بها الكاتب دليله الأول، وهو دليل قائم على ضرورة تماثل أحداث الرواية مع أحداث التاريخ، وإلا كان كلام الرواية له خبىء معناه ليست لنا عقول!

ونقول للكاتب أيا ما كان تفسيرك وأيا ما كان رأيك، فعليك ألا تنسى وألا تتناسى أنك بصدد عمل أدبى.. إبداعى.. رواية مبتكرة.. ولست بصدد كتاب تاريخى، أو مؤلف علمى.. إنه عمل يقوم أساسـا على شطحات الخيال، وبالتالى فأى تفسير لا يأخذ – فى اعتباره – تلك الحقيقة يكون تفسيرا فاسدا، ويكون لهذا التفسير خبىء!!

الدليل الثانى مصر أم الدنيا:

يذكر الكاتب أنه قد ورد فى افتتاحية المؤلف عبارة تقول عن «الجبلاوى» أنه هو أصل حارتنـا، وحارتنا أصل مصـر أم الدنيا.. ويعلق عليها بقوله إن «هـذه العبارة تومىء من

ويصـف الكاتب الذين يزعمون بـأن «الجبلاوى».. ليس المقصود منه الله، بأنهم واحد من ثلاثه: إما شـخص لم يقرأ الرواية.. أو أنه قرأها ولم يفهمها.. أو أنه قرأها وفهمها ثم عاند وكابر وراح يشـهد زورا.. وأن الكاتب لذلك، وأمام هذه المكابرة فسوف «يستخرج من كلام المؤلف عشرات الأدلة التى تكشف الزيف».

ويستدل الكاتب على ما يذهب إليه بأدلة عشرة نستعرضها فيما يلى دليلا بعد دليل:

الدليل الأول: لغز من الألغاز

• يشير الكاتب إلى فقرة وردت فى الافتتاحيه يقول فيها المؤلف:

«وجدّنـا هذا لغـز من الألغاز، عمُر فوق ما يطمع إنسـان أو يتصور، حتى ضُرب المثل بطـول عمره، واعتزل فى بيته لكـبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد.. على أى حـال يدعى «الجبلاوى»، وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحـب أوقافها، وكل قائم فوق أرضها، والأحكار المحيطة بها فى الخلاء»

يقول الكاتب فى هذه الفقرة رمزان:

أحدهما: ما أثبتناه فى العنوان «لغز من الألغاز» والثانى ما دعاه المؤلف باعتزال الجد الذى هو «الجبلاوى». أما الرمز الأول: «لغز» فهذا دليل على أن «الجبلاوى» فى الرواية رمز الألوهية «الله».

ذلك أن الله «ليس كمثله شئ» ولا تحيط به الفكرة، هو فوق الظنون والأوهام، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، وهو الظاهر، وهو الباطن، وهو الغنى القائم بنفسه فوق الزمان وفوق المكان، لأنه كان قبل أن يخلق الزمان والمكان.

وهـذه المعانـى... وغيرها كثير – هى المرموز لها بأنهـا «لغز» لأن طبيعة اللغز تقتضى التفكير العميق والحيرة والارتباك..!!

وثانيهما: الاعتزال – هذا – كما يذكر الكاتب – رمز ثانٍ وَظّفَتْ به الكاتب إنه اعتزال منـذ عهد بعيد، والذى فهمناه من هذا الرمـز أن المؤلف يقصد به انقطاع الوحى، وتوقف الرسـالات السماوية، بعد أن جاء الإسـلام حاملا الكلمة الأخيرة لله فى توجيه الإنسانية جمعاء إلى ما فيه سعادتها فى الدنيا والآخرة..

واسـتدل علـى ما ذهب إليه ممـا ورد فى الرواية بعد ذلك من قـول «فلم يره أحد منذ اعتزاله» فقد رمز بذلك لعدم سماع كلام جديد له بعد توقف الرسـالات، مشـبّها السـماع بالرؤية فى سياق نفى كل منهما..

والواقـع أن ما ورد فى حديث المؤلـف من أن «الجبلاوى» لغز من الألغاز، وأنه اعتزل منذ فترة طويلة لايمكن أن يفهم منه بذاته أن المؤلف إنما يعنى بذلك الذات الإلهية..

والذى نقوله أنه ليس فى هذين الوصفين ما يوحى بأن المؤلف يريد بهذين الوصفين ما أراده له الكاتب.. ذلك أننا إذا وصفنا شـخصا ما بأنه لغز، فليس معنى هذا بأننا وصفناه بالألوهيـة، وإلا لأصبح من المحرم اسـتعمال لفظة لغز.. ثم من قـال بأن «الاعتزال» إنما يعنى انقطاع الوحى وهو ما حدث منذ تمام إبلاغ «محمد عليه الصلاة والسـلام» رسـالته – خاتم الرسـالات – فالاعتزال كما نعرفه أمر دنيـوى ملموس، وواقع فيما بيننا، ولا يدّل – إن حدث – على ألوهية أو ما يشبهها.

ويعلم الله أن الكاتب إنما افتعل هذا الدليل افتعالا، بينما أن الواقع أن ما ذكره الكاتب لا يمكن أن يؤدى – بحال من الأحوال – إلى شـئ، مما يدّعيه، أو يفتعله، أو يتخذ منه دليلا «بالإكراه».

الدليل الثانى: مالك الملك

يذكر الكاتب نقلا عن المؤلف أن هذا الأخير يصف «الجبلاوى» بأنه «صاحب أوقافها»، وكل قائم فوق أرضها، والأحكار المحيطة بها فى الخلاء. «وكان معنى ذلك أن «الجبلاوى» هو مالك الملك، ولن يكون صاحب هذا الوصف إلا الله».

وهـذا دليل ينافس الدليل السـابق وهنا وضعفا.. فليملـك هذا «الجبلاوى» ما يملك من أوقـاف وأحـكار.. فإن ذلك لا يجعل منه إلها ولا يقرّبه من الألوهية قيد أنمله، وإلا كان سادة العهود الوسطى الذين كانوا يملكون كل شئ حتى الإنسان، آلهة يعبدون..!

الدليل الثالث كان الله ولم يكن معه غيره:

يشـير الكاتـب إلى مـا وصف المؤلف به «الجبـلاوى» من أنه عاش فـى الحارة وحده وهـى خلاء.. وأضاف الكاتـب أن عبارته هذه تعنى أن الحارة هـى الكون، ولما كان رمز «الجبـلاوى» يعنى عنـد المؤلف: «الله» كان معنى عبارته أن «الله» كان والكون خلاء ليس فيه سواه ثم يصف المؤلف «الجبلاوى» بأنه كان بالضعفاء رحيما.. ويعلق بأنه هكذا تتضح حقيقة «الجبلاوى» فى الرواية طورا بعد طور.

• يالله أى طور هذا الذى زاد المسألة وضوحا..؟

طرف خفىّ بأن الكاتب أراد بها أن يقول إنه لا يكتب عن حارة بل عن الدنيا زمانا ومكانا وسكانا..» ثم يضيف قوله: ألا ترى المؤلف – هنا – أراد أن يخرج حارتنا من المفهوم الضيق المتبادر إلى الذهن، إلى المفهوم الرمزى الممتد الشامل لكل معمور من الأرض ؟

فإذا كانت حارتنا تعادل الدنيا، فإن أولادها هم أولاد الدنيا جميعا.

ونقول للكاتب: أجهدت نفسك فى الإمساك بالأدلة.. رغم أن القراءة اليسيرة للرواية تؤدى إلى الإلمام بكل ما بها، والإحاطة بكل أحداثها، ولن يجد قارىء للرواية نفسه فى حاجة إلى تفسيرات وأدلة على صحتها: فكل قارىء سوف يفهم من الرواية ما تلهمه به قريحته، ومن الطبيعى أن يختلف مدى فهم الرواية من قارىء إلى قارىء آخر، بما تثيره الرواية فى نفسه وفى وجدانه من مشاعر وأحاسيس وأفكار.. ولن يحاسب المؤلف قراءه ويسائل كلا منهم عمّا يكون قد أدرك من قراءته للرواية فهى عمل إبداعى يسعى إليه، ويسعد به، كل من له بالأعمال الروائية هوًى وغرام دون حاجة إلى ما أجهد كاتبنا نفسه فيه من تفسيرات وأدلة ودلالات!

الدليل الثالث ولادة النزاع مع ولادة الحارة:

- لفتت نظر الكاتب العبارة التالية التى وردت فى الافتتاحية:
- ولد النزاع فى حارتنا منذ ولدت، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم».
- ويعلق عليها بتساؤله عن ذلك النزاع الذى ولد مع الحارة منذ ولدت؟
- ويجيب:
- إنه النزاع الذى حدث من «إبليس» حين أبى السجود «لآدم» عاصيا أمر ربه.
- ثم النزاع الذى نشب بين ولدى «آدم وقابيل وهابيل» وانتهى بقتل «هابيل» بيد أخيه «قابيل».
- ويقول الكاتب: ولهذا نقول بكل اطمئنان أن الحارة فى «أولاد حارتنا» هى الكون كله، وأن أولادها هم البشر جميعا، ثم الملائكة والشياطين.
- ونقول للكاتب: إن المسأله أبسط من ذلك، فلا يخلو مكان فى الأرض من نزاع، ولم يخل عصر من العصور من نزاع.. فالبشر – منذ بدء الخليقة – فى نزاع متصل. وفن القصص ما هو إلا رواية لما يدور من صراعات ونزاعات على مر الزمان وفى مختلف الأماكن..

ولكن.. لم سمى المؤلف الدنيا حارة؟

يقول الكاتب إن تسمية «المؤلف» للدنيا بالحارة لأنها تتسق مع (الجو النفسى) للكاتب، فإن بين الحارة والحيرة رحما ماسة، وكلتاهما تدلان على الارتباك والتشتت والاضطراب.. والتسمية من ثم وليدة نظرة تشاؤمية إلى الحياة. وذلك أننا قد أشرنا من قبل إلى أن المؤلف كان واقعا تحت سيطرة فكر قلق حين كتب هذه الرواية، وأن أمورا كثيرة من قضايا الوجود كانت تضطرم فى مخيلته.

وهكذا يضع الكاتب المقدمة من «عنده»، ثم يرتب عليها ما يريده من نتائج. فالمؤلف كان قلقا ومضطربا نفسيا وكان مشغولا بأمور الكون ومن ثم جاءت روايته قلقه مرتبكة ذات نظرة تشاؤمية..

وعلى ذلك فإذا كانت المقدمة غير صحيحة، ولا دليل عليها.. جاءت النتائج – بالطبيعة – مختلفة عمًا انتهى إليه الكاتب.

ومن ناحية أخرى، فليس فى الرواية تشاؤم ولا ارتباك، إنما هى رواية شأنها شأن روايات «نجيب محفوظ» تقوم على الصراع المتصل، الذى قد ينتهى بالانتصار أو بالهزيمة وعلى كل فنهاية كل صراع منهزم ومنتصر.. أى بائس مغلول، وناجح مسرور.. والأمر لا يحتاج إلى محلل نفسى، يحلل آثار القلق وانعكاساتها على إبداعات الروائى المبدع!!

٩- «الجبلاوى».. من يكون «الجبلاوى»؟

يصف الكاتب بأن «أخطر رمز فى الرواية هو «الجبلاوى»، ثم استمر وروده بلا توقف حتى آخر صفحة من صفحات الرواية البالغ عددها ٥٥٢ صفحة.» ويضيف الكاتب قوله شديد الغرابة مصاغا فى العبارة الآتية: «وسوء سمعة هذه الرواية فى الأوساط الدينية وفى الرأى العام العربى والإسلامى – فضلا عن المصرى – يرجع بالدرجة الأولى إلى رمز «الجبلاوى» حيث رمز به المؤلف – سامحه الله – إلى معانى الألوهية أى «الله» تحس بهذا من اطلاعك على المقدمة – افتتاحية – وكلما مضيت فى القراءة زاد إحساسك بمعنى هذا الرمز الشيطانى الخطير، وبخاصة فى الفصل الأول الذى أسماه «أدهم».. والعجب – كل العجب – أن أقلاما انبرت للدفاع عن المؤلف، وتّدعى – زورا وبهتانا – أن «الجبلاوى» فى الرواية ليس هو الله، ويستندون فى دفاعهم هذا «الخائب» إلى أسباب أو هى من بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون..».

إن الثابت مما قاله الكاتب أنه هو القائل بأن الحارة هى الدنيا وأن «الجبلاوى» هو الله، ومن ثم فإذا كان المؤلف قد ذكر أن «الجبلاوى» وجد الحارة خلاء، فليس مؤدى ذلك بحال من الأحوال أن المؤلف كان يقصد بذلك الله – سبحانه – فهو الأول بلا بداية القديم الذى لم يسبق وجوده عدم.. هذا المعنى لم يرد فى قول المؤلف أن «الجبلاوى» وجد الحارة خلاء كما أن هذا المعنى لا يمكن أن يستنتج من هذه المقولة طالما أن المؤلف لم يسبق له أن سلّم بما سلم به الكاتب وبخاصة لأن هناك فارقا زمنيا بين تاريخ صدور الرواية وبين تاريخ صدور كتاب الكاتب... فترة زمنية تبلغ سبعة وثلاثين عاما..!!

الدليل الرابع ضلال بعض الطوائف فى الاعتقاد:

ويستمد الكاتب هذا الدليل من عبارة قالها المؤلف عندما ذكر: «ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته، وهكذا حال الدنيا» وهى عبارة عادية لا توحى بشئ.. غير أن الكاتب أوّلها على أن المؤلف إنما يعنى بها الإشارة إلى العقائد الوضعية البدائية حول نشأة العقيدة فى الله أو أن يكون مراده الإشارة إلى الطوائف التى حرّفت حقيقة الرسالات التى جاءتهم بها رسلهم وأيا كان مراده – هكذا يقول الكاتب – فإن هذه العبارة – على قصرها – دليل رابع على أن المراد «بالجبلاوى» الرمز إلى الألوهية..

ولنا أن نستغفر الله من كلام الكاتب، ذلك أن المؤلف لم يقصد «بالجبلاوى» سوى بشر من نسج خياله، ولم يعن به بحال من الأحوال الذات الإلهية، وعلى ذلك فإذا حدث عنه بأنه قد جاء من ذكره بشئ فإنه بذلك لم يخرج عما يحدث فى دنيا البشر، وبصفة خاصة إذا كان موضع ما ذكر هو صفحات روايته وليس أى متون مؤلف فى العقيدة أو بحث فى التاريخ.

هكذا أوردنا ما ذهب إليه الكاتب، وتحليلنا لقوله فى بند واحد – فقد كان ما ذكره الكاتب محض ادعاء ظاهر السذاجة، ومجرد مقولة تحمل من الافتراء أكثر مما تحمل من قولة حق.

الدليل الخامس «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو»:

يذكر الكاتب بأن الله وصف نفسه بأنه «عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدا» وبأوصاف مماثلة وردت فى آيات عديدة تكون عقيدة المؤمنين فى الذات الإلهية.. ليقول الكاتب بعد ذلك: «قارن هذا الوصف بما جاء فى قول المؤلف يصف «الجبلاوى»: أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق، وأن نعيش نحن فى التراب ويذكر الكاتب أنك إذا أحسنت المقارنة تبين لك فى الحال أن عبارة المؤلف تشير إلى استئثار الله بعلم الغيب.. أليس هذا دليلا على أن المراد «بالجبلاوى» عند المؤلف هو «الله» سبحانه.

ونقـول للكاتـب.. أن عبارة المؤلف تتفق مع أحداث روايته التى تقوم على أسـاس أن «الجبلاوى» بشـر من البشـر، من ثم وهو المتسلط فإن المتوقع منه أن يبيح لنفسه ما لايبيح لسـواه.. ينعم هو فى بيته، يحتفظ بأسـراره، ثم يترك الآخرين لعذاباتهم، يقتل بعضُهم بعضا، ويحارب بعضهم بعضا. فهو بشر وليس إلها، ومن ثم فهو ليس بالمعصوم من الخطأ، المبرّأ من الزلل.. ولكن الكاتب يبتدع من الأدلة ما يشـاء ويسـتنطق الكلمات بما يريد. وإن خالف فى ذلك الواقع، وحاد عن الصواب، وجافى طبائع الأشياء.!!

الدليل السادس الرسل أعلم الناس بالله:

ينقـل الكاتـب عن المؤلف – فى الافتتاحية قوله: «وإذا تسـاءلت عما صار به – يعنـى «الجبـلاوى» – وبنا إلى هذه الحال، سمعت من فـورك القصص – أى الدينى النبـوى – وتـرددت على أذنيك أسماء: «أدهم وجبل ورفاعة وقاسـم». ولن تظفر بما يبكّ الصدر، أو يريح العقل..» (وقد أضاف الكاتب أن المؤلف ربما كان يقصد الصدى، أو ما يبلّ الصدى ونحن نرى أن المؤلف يقصد الصدر – لا الصدى – أى أنه لن يظفر بما يريح أو يشرح الصدر.

ويعلق الكاتب بأن هذه الفقرة تفيد عدة حقائق:

فأولا: أن المراد من «الجبلاوى» عند المؤلف هو الله.

وثانيا: أن القصص الذى يُسمع عند التساؤل هو القصص الدينى النبوى.

وثالثا: أن المعنّى «بأدهم وجبل ورفاعة وقاسـم» هو: «آدم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ»

ويعلّق الكاتب على ذلك بقوله أنه مما يؤسف له أن وحى الله الحكيم إلى رسله – بالنسبة للمؤلف – لا يشـفى النفس، ولا يقنع العقل، فإلى أى شـئ يفزع الناس بعد الله؟. ويقرر الكاتـب أن هـذا القول لا يصدر إلا عن رجل لديه ريب فى «حقيقة» ما أنزل الله وما قضى به إلى رسـله.. ويضيف قوله الآتى: أن ظننا أن المؤلف ليس رقيق العقيدة إلى هذا الحد، ومع هذا «الظن» فإن قوله هذا يوقع فى الحيرة، ويدعو إلى سوء الظن!

ونحن نطمئن الكاتب إلى أنه ليس هناك ما يدعو إلى «سـوء الظن» لأن المؤلف لم يكتب مـا يخرجه عن حـدّ الإيمان إذا قرئ ما كتب على النحو الـذى كتبه عليه دون تأويل أو ترميز أو إعطاء الألفاظ مدلولات ليست لها، وتقديم فروض أن المؤلف إنما يقصد كذا، وأنه

إنما يعنى بالحكايات القصص الدينى ورسالات الرسل، رغم أن ما ورد فى الرواية لايعدو أن تلك الحكايات كانت تروى على ألسنة الشعراء الشعبيين الذين لا يراعون سوى أهل القوة، ولا ينافقون إلا ذوى السلطان فلا يمكن أن يكون المعنىّ بحكاياتهم رسالات الرسل.. ثم مِن أين للكاتب أن يجزم بأن قصد المؤلف إنما اتجه إلى الحديث عن أنبياء الله؟ والفهم الصحيح لما رواه المؤلف عن «أدهم وجبل ورفاعة وعيسى» ينفى عن المؤلف أنه كان يروى قصص الأنبياء الأربعة.. فذلك أمر لم يقم إلا فى ذهن الكاتب ومن يشايعونه من أصحاب التفسيرات والتأويلات المضللة.

الدليل السابع اللجوء إلى الله فى الشدائد:

يذكر الكاتب أن المؤلف يدرك أن مفزع الناس فى الكوارث والمحن إنما هو الله.. يستشف ذلك من أقوال المؤلف: «هذا بيت جدّنا، جميعنا من صلبه» – لا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير– هنا يقيم «الجبلاوى»، صاحب الأوقاف، هو الجد، ونحن الأحفاد ويعلّق الكاتب على ذلك بقوله: أليس فى كلام المؤلف هنا أوصاف لا يوصف بها إلا الله، قيوم السموات والأرض، وليس «الجبلاوى» الذى لا وجود له إلا فى خيال المؤلف؟

والذى نقوله إن الكاتب إنما يجتزئ العبارات من مواضعها، ويلبسها الثوب الذى يريده، ويفهمنا أن «الجبلاوى» عند المؤلف هو الله وأن أهل الحارة يلجئون إليه كلما اشتد بهم الكرب، مع أن أحداث الرواية لا تؤدى إلى ذلك، إذ البادئ من أحداثها أن «الجبلاوى» شخص جبّار – ليس هو الإله بحال من الأحوال – فهو شخص يسكن بيتا وله أولاد من صلبه، وله وقف يتملكه، وله سطوة وسلطان.. وقد جاء وقت اعتزل فيه وترك أولاده وأحفاده لحياتهم، وبقى هو بالنسبة لهم أملا يراودهم، ومثلا أعلى ينظرون إليه.. ولا ندرى كيف أحال الكاتب ذلك الوضع وتلك الصورة إلى أن المعنىّ هو الذات الإلهية.. ونستغفر الله لنا جميعا من هذا القول الذى لم يكن من الجائز قوله أو ترديده.

الدليل الثامن خالق الكون:

ودليل الكاتب هو ما قرره المؤلف من أن «الجبلاوى» «هو أصل حارتنا» – فقد استشف منها أن المؤلف يعنى بذلك أنه أصل الكون وخالقه، وأنه بذلك يقصد به الذات الإلهية..!

ونقول للكاتب.. أن التعبير ب «أصل الحارة» و«أصل البلد» عن الأسر العريقة تعبير شائع ومعروف، وكل أسرة ذات نسب تدّعى أنها أصل المكان الذى نشأت فيه، ومن ثم

لهـا السـيادة والمرجع. ومن ثم فلا يحقّ للكاتـب أن يرتب على هذه العباره من النتائج ما خرج بها عن حدودها السوية، ومعناها الواضح.

الدليل التاسع عجز الفكر عن الإدراك:

يذكر الكاتب أن منهج القرآن فى لفت الأنظار إلى الخالق البارئ العظيم، وملء القلوب إيمانـا به، ويقينا بقدرته، ويكفى أن نطالع آثـار قدرته لنقر بوحدانيته وألوهيته ويضيف الكاتب إلى ذلك قوله:

«بيد أن الأسـتاذ «نجيـب» أدار ظهره للآثار والآلاء والآيـات الكونية: واكتفى بالنظر العقلـى المجرّد ليصل إلى كنه الذات الإلهية، فعجز ولم يلو على شـىء، وتلك هى عاقبة ومصير كل عقل لا يهتدى بالوحى، ويظن أنه قادر – وحده – على إدراك حقيقة الذات الإلهيـة العليـة والإحاطة بها من كل الوجدان..«ثم يذكـر» أن المؤلف لمّا اعتمد على عقله المجرد، كل بصره، وحار عقله، ووجب قلبه، ثم عاد إليه البصر وهو حسير».

لكن من أين للكاتب ذلك كله؟

إنـه يطلب إلينا أن نقرأ أوصاف المؤلف عن «الجبلاوى».. وبصفة خاصه قول المؤلف: «وما زلت أجد الحديث عنه شائقا لا يملّ، وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلّى أفوز بنظره، ولكن دون جدوى».

والكاتـب يرى فى ذلـك أن المؤلف قد أعرض عن الطريق المفتوح المُمهد، وقصد الطريق المسـدود الموصد.. وما أكثر الفلاسـفة الذين نهجوا من قبله نهجه فتفرقت بهم السـبل! ويختم بحثه بقوله: «وأيا ما كانت تجربة المؤلف فى هذا المجال، فإن اعترافه بعجز العقل عن تمام المعرفة فى «الجبلاوى» لدليل ذو خطر على أن المؤلف، ما رمز «بالجبلاوى» لشىء إلا لقيوم السماوات والأرض».

يالله.. كل هذه المقولات والأسـئلة، والتشـكيك فى إيمان المؤلف والخروج به إلى زمرة المتشككين – قائم على أساس ظنىّ بحت – ليس له ما يسانده – هو أن «الجبلاوى» عند المؤلـف يعنى به الذات الإلهية.. وأنه إذ يطـوف بالبيت الكبير مؤملا أن يفوز منه بنظرة فـإن ذلـك معناه أن يصل إلى اليقـين بوجوده عن طريق العقل. ولسـنا ندرى فى الحقيقة والواقع أين يجب أن يكون موقع العربة بالنسـبة للحصان – فى منطق الكاتب –؟.. هل

أمام الحصان أم خلفة؟ مسألة أصبحت يشوبها الغموض، فالكاتب يفترض أولا أن المؤلف يعنى «بالجبلاوى» الذات الإلهية.. ثم يروح يفسر كلماته وما يرويه من أحداث على أنه إذا ما ذكر «الجبلاوى» أو البيت الكبير فإنما الحديث يدور عن الذات الألهية.. وإذا ما قال المؤلف أنه يودّ أن يفوز بنظره فمؤدى ذلك أنه غير مؤمن بالوحى ويريد أن يدرك حقيقة الألوهية بالعقل.. أسئلة وتخريجات أقيمت جميعها وشُيِّد بناؤها على مجرد افتراضات ألقاها الكاتب، وتفسيرات قدمها، وقطع بصحتها ثم راح يقيم عليها النتائج المغلوطة.

الدليل العاشر غيب ما وراء الطبيعة:

وهو لايعدو أن يكون تكرارا لما ورد فى الدليل التاسع. أن الكاتب يستشهد بالفقرة التى أشار إليها وبنى عليها ما بنى من نتائج ثم يعود فيقتبس فقرة أخرى مماثلة هى قول المؤلف: «وكم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحنّط المركب أعلاه! وكم جلست فى صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير، فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت، ونوافذ مغلقة لا تنم عن أثر الحياة!».

يعلّق الكاتب على ذلك بقوله «إن المؤلف هنا لا يصف إلا لغيبيات أو حقائق ماوراء الطبيعة، وقد رمز إلى الجهل بها بالنوافذ المغلقة التى لا تنّم عن أثر لحياة، أى شىء خارج نطاق الحس: لا شىء يُرى، ولا يُسمع، ولا يُلمس، ولا يذاق، ولا تُشم له رائحة!

وهذه هى التخريجات التى انتهى إليها الكاتب، إذ أخرج المؤلف من دائرة المؤمنين بالوحى وبالقدرة الإلهية عمًا وصل إلينا من الرسالات ومن الأنبياء ومن الكتب المقدسة إلى دائرة من لايثقون إلا فى الحواس الخمس ويريدون أن يتثبتوا بواسطتها من حقيقة تلك المعتقدات. وهو جهد ضخم، وعمل يدّل على براعة فى التدليل، ومقدرة فى الوصول إلى النتائج المطلوبة أو المقررة سلفا.. ولكننا لا يمكن أن نسلم بالأساس الذى أقام عليه الكاتب بناءه. فقد أقامه على محض افتراض أن المؤلف إنما يعنى «بالجبلاوى» «الذات الإلهية» وهو افتراض سابق على إقامة الأدلة عليه بل إن معظم الأدلة العشرة تقوم على ذات الفرض المسبق، أى أنها أدلة تختلط فيها المسائل ولا يمكن تحديد المقدمات الصحيحة الثابتة وتقريرها والتسليم بها، حتى إذا ما رتبنا عليها النتائج المنطقية كان ترتيبا منطقيا مقنعا.. لكن الواقع أن «الفرض النظرى» و«الحكم المسبق» و«اليقين المتمكن دون دليل» كل تلك هى مقومات هذه الافتراضات وما تولّد عنها من نتائج، هى أبعد ما تكون عن الحكم الصحيح، أو الحق الصريح..

* * *

١٠ - الحديث عن الرسل الأربعة:

يؤكد الكاتب أن حديث المؤلف عن «أدهم وجبل ورفاعة وقاسم» إنما هو حديث مباشر عن الأنبياء والرسل: «آدم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام».

ثم هو يقيم الأدلة على صحة ما ذهب إليه، من واقع ما روى المؤلف من أحداث وحوادث تتشابه - إلى حد قريب - مع ما ورد فى قصصهم فيما ترويه الكتب المقدسة.

وكل هذا لا يغيّر مما ذهبنا إليه من أنه:

أ - وإن كانت بين القصص التى رواها المؤلف عن «أدهم وجبل ورفاعة وقاسم» - فى بعض النواحى - أوجه شبه كبيرة - تصل فى أحيان كثيرة - إلى حد التقارب بين ما رواه المؤلف عن هؤلاء الأشخاص الذين سماهم بما أطلقه عليهم من أسماء - وبين ما هو ثابت ومروى من السير الحقيقية لأولئك الرسل الكرام - إلا أنه ليس هناك ما يقطع بأن المؤلف كان يقصد إلى أن يحكى قصصهم - وهى فى الواقع تاريخ لابدّ وأن يُروى بدقة وأمانة دون أدنى تغيير أو تحريف - فالمؤلف لم يكن فى حديثه ذاك براو لتاريخ الأنبياء، ولا هو من هدفه أن يعيد صياغة سيرتهم صياغة قصصية - ذلك لم يكن قصده من قريب أو من بعيد.

ب - بل إن الواضح والمؤكد أن المؤلف إنمّا كان بصدد إنتاج عمل فنى، إبداع لإحدى رواياته التى يلتزم فيها بأصول الفن الروائى، ويلجأ بشأنها إلى مقدرته - وموهبته الإبداعية - ، فيقدم ويؤخر فى الأحداث، ويطيل أو يوجز فى رواية الوقائع، ويعمد إلى إجراء حوارات علىألسنة شخصياته، أو ينوب هو فى روايته لما يريد عنهم أو عن أفكارهم أو فيما يدعوهم إلى هذا التصرف أو ذاك، فنحن بإزاء عالم خاص والمؤلف وحده هو المتصرف فيه - المحرك لأحداثه ووقائعه، المجرى لحواراته وما يجرى على ألسنة أشخاصه، هو الذى يملك تصريف أمور هذه الشخصيات، وسير الأحداث على مدار الرواية..

جـ - أن المؤلف من حقه أن يقتبس ما يشاء من أحداث الواقع أو أحداث التاريخ، ليؤلف منها جميعا عمله الفنّى، الذى لا يمكن أن يكون موضع المساءلة عنه هو مدى مطابقة العمل للتاريخ، بل مدى تلاحم الأحداث، وتنامى العمل الفنى، وتقديم صورة كاملة، تعبّر عن معان متعددة، وتثير فى أنفس القراء مشاعر مختلفة.

د – إنــه مــن ثم لا يمكن أن يكون للعمل الفنى تفســير واحد محدّد، بل تتنوع وتتعدد التفســيرات لــما أراد المؤلف التعبير عنه بتعدّد أذواق القــراء واختلاف مناحى تفكيرهم – الواحد عن الآخر – بل إن المؤلف نفسه قد يصاب بدهشة عظيمة عندما يطّلع على ما قد يذهب إليه البعض من استخلاص لأفكار أو مقاصد يؤكدون أن المؤلف قد قصدها المؤلف ثم يدللون علىذلك مما تضمنته الرواية ذاتها.

و – وعلىذلك، فإننا نؤكد أن هذه الرواية لم تقصد إلى رواية تاريخ البشرية ولم تهدف إلى إيراد تاريخ الرسل، ولم تعمد إلى رفعة شأن العلم الحديث، والى أنه هو البديل عن الأديان، فتلك أمور تتجافى مع طبيعة العمل الفنى الأصيل، وتتنافى مع العملية الإبداعية التى تجرى على أيدى المبدعين الأصلاء أصحاب الأقدام الراسخة فى فنونهم الإبداعية.

هـ – ومن هنا فإننا لا نوافق الكاتب على ما أنهى به كتابه من ملاحظات أبداها بشأن تناول المؤلف لأحداث روايته.

١١ - ملاحظات الكاتب حول أحداث الرواية المتعلقة بالشخصيات الأربع:

وقد أبدى الكاتب العديد من الملاحظات حول المنهج «الفنى» للمؤلف فى تناوله لأحداث روايته – وسوف نتناول فيما يلى أهم تلك الملاحظات.

الملاحظة الأولى تحريف الوقائع:

يذكر الكاتب أن المؤلف «عرض وقائع التاريخ الدينى فى الفصول الأربعة الأولى – عرضا محّرفا مزوّرا.»ثم يتعرض الكاتب بعد ذلك لما خالف فيه الراوى ما هو ثابت فى سيرة رسل الله الأربعة.. ويفصّل أوجه الاختلاف عرضا مفصلا.

والذى نراه – وتؤيدنا فى ذلك طبيعة العمل محل الدراســة – أن المؤلف ليس مؤرخا دينيــا، ولم يكــن فى روايته راويا لوقائــع تاريخ الأنبياء، إنما هو مؤلــف روائى، وكتابه الذى يقدّمه هو رواية فنية، وهو وإن كان قد أفاد مما قام به الرســل من جهاد، وما قدّموا للبشــرية من جهود، فاقتبس بعضا مما روى عنهم، وضمّن روايته وقائع شبيهة بما حدث لهــم – فإنــه إن يكن قد خالف فى بعض الوقائــع الحقائق التاريخية – فمرجع ذلك أنه لم يكــن يؤرخ لأنبياء الله ورســله، ولا هو كان راويا لتاريخهــم – إنما كان بصدد تأليف رواية فنية لها متطلباتها، وهو لم يذكر بالنســبة لمن رســم صورهم من شخصيات أنه يقصد الأنبياء.. وإنما هو يروى عن شخصيات من البشر يعيشون فى دنيا البشر، ويتصرفون كما يتصرف سائر البشر.

وعلى ذلك فليس لنا أن نلومه على عدم الالتزام بالوقائع التاريخية طالما أنه لم يدع أنه مؤرخ أو مؤلف لقصص الأنبياء.. إنما نحاسبه بمقدار توفيقه الفنى، ونجاحه الإبداعى.

الملاحظة الثانية إساءة إلى الذات العلية:

يذكر الكاتب أن المؤلف فى روايته وجّه كما هائلا إلى «الجبلاوى» – رمز الألوهية – من الإساءات المختلفة على ألسنة أشخاص الرواية. «هذا بالإضافة إلى الأوصاف البشرية التى وصف بها «الجبلاوى» فى الرواية كلّها من التزوج والإنجاب والاحتياج إلى «غيره» والأكل والشرب والراحة والنوم، والشيخوخة، والاعتزال، ثم القتل والموت.. وكل هذه – عند الكاتب – افتراءات تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدا»..

هذا ما أورده الكاتب. وهو أمر فى غاية العجب. ذلك أن المؤلف لم يدع ولم يذكر – بل لم يشر – إلى أنه يعنى بشخصية «الجبلاوى» الذات الإلهية، بل هو بشر من البشر، أنشأ الحارة وتملكها، وتزوج وأنجب، وحاز الأموال وتصرف تصرف البشر.. حتى وإن طغى وتجبّر، فما أكثر أشخاص الجبابرة الطغاة من البشر..

إنما الذى قال بألوهية «الجبلاوى» هو الكاتب نفسه، وراح يقيم على ذلك الأدلة المنقوضة التى عرضنا لها من قبل.. ثم هو يأتى بعد ذلك فيلوم المؤلف لأنه قال عن «الجبلاوى» أنه من البشر، وجعله يتصرف تصرفات لا يأتيها إلا البشر.

ونقول للكاتب.. أنت وما تشاء. لكن الذى نرى ضرورة تأكيده أن الشخصيات جميعها التى تضمنتها الرواية – وعلى رأسها «الجبلاوى» – هى شخصيات بشرية تعيش فى دنيا البشر، وتتصرف تصرفات البشر، وإن كان البعض منها يحاول أن يسمو بتطلعاته إلى ما يرفعه درجات فى دنيا البشر – وتلك حقيقة قائمة.. وعلى كل منا أن يسلم بها، ويتعامل على أساسها.

سائر الملاحظات:

- وهى عديدة أوردها الكاتب على النحو التالى:
- الإساءة إلى رسول الإسلام عليه ﷺ.
- الحط من قدر العرب والمسلمين.
- مناصرة غير الإسلام على الإسلام.
- تجريد التاريخ النبوى من محتواه.
- التعاطف مع الشيطان.

• ربط منابع النور بمواضع الخطيئة.
• الاختيار والترك.
• نباهة «عرفة» وصاحبيه.

ولا نجد داعيا لتناول كل ملاحظة على‌حدة، لأنها جميعا تقوم على أســاس أننا بصدد كتاب فى تاريخ الأديان، ومن ثم فهو يحاسبه – على هذا الأساس – ومن منطلق إسلامى على أساس أن الإسلام هو الدين الخالص.

والواقع – كما ذكرنا من قبل – أننا لســنا بصدد عمل تاريخى، ولا مؤلف دينى وإنما نحــن بصدد رواية فنية، وعمل إبداعى، صيغت أحداثها على نحو متنام ، ومترابط، وهو عمل له وقعه لدى كل من قارئيه ، حيث يحقّ لكل منهم أن يفهم منه ما يريد، وأن يخلص منه إلى ما يشاء، وأن يزن حبكته وترابطه، وأن يقدِّر قيمته ومكانته على النحو الذى يخطر لــه، وإن كان البعــض من القراء يهتم بقراءة ما كتبه النقــاد، فذلك لزيادة متعته بما قرأ، وتقديره لكتّابه الذين يفضلهم، ويرى فيهم درجة عليا من الفنية والإبداع.

١٢ - حديث الكاتب عن «عرفة»:

أ – ســوف نورد فيما يلى ما انتهى إليه الكاتب بشــأن «عرفة»، وهى نتيجة فى غاية الخطورة – ولا نغالى إذا قلنا إنها نتيجة تقوم على الظلم وسوء الفهم معا – ولن نزيد عن أن نورد كلام الكاتب بنصه:

١ - عن النية:

«أما القســم الثانى – «عرفة» – فهو معقود أساســا لعمليتى هدم وبناء أو إعدام وإحياء وكانت «نية أولاد حارتنا» مبيتة على هذا من قبل أن يخط حرفا واحدا فيها، فالنيّة عادة وواقعا تسبق العمل دائما وتكون «هى» الباعث على العمل، والداعية إليه: الهدم أو الإعدام لـ «الدين» الذى جاء به الرســل وحيا يوحى مــن عند ربهم، والإحياء لـ «العلم الحديث» ممثــلا فيما يُدرك بالحواس الخمس، وتجرى عليه التجارب والملاحظات والمشــاهدات ثم تســتخرج قوانينه الكلية، وقواعده الجزئية المســتوحاة من المادة المدروسة، وكان كل شىء فى الرواية يخدم هذا الاتجاه، ويمهِّد له من وراء ستار».

والذى ندهش له، ولا نجد له تفسيرا مقنعا كيف توصل الكاتب إلى معرفة «نية» المؤلف التى سبقت تأليفه لروايته؟

هل عرفها حدسا وتخمينا أم عرفها حقيقة ويقينا؟

أمـا أن يكـون عرفها حقيقة ويقينا – فذلك أمر محال. فالكاتب ليس من «الحرافيش» ولا هو من أصدقاء «نجيب محفوظ»، وربَّما لم يلتق به قط في حياته – لقاء خاصا.. ومن هنا لنا أن نستبعد أن يكون عرف بهذه النية من صاحب النية وصاحب الرواية على وجه مؤكد وعلى نحو يقيني.

يبقى أن يكون عرفها حدسـا وتخمينا.. مسـتدلا من شواهد سـابقة، وأمارات وأفكار متواترة، وأدلة ملموسة ظاهرة.. وتؤكد أن شيئا من ذلك لم يكن له وجود.

وإزاء مـا تقدم فلا يتبقى إلا افتراض واحـد لا ثاني له، وهو أنه افترض فرضا لا يقبل الجـدل، أن نية «نجيب محفوظ» لا يمكـن أن تكون إلا كذلك، وتضخم الفرض في ذهنه وذاكرتـه وقلبه حتى انقلب إلى حقيقـة مؤكدة، وانقلبت الحقيقة لديه إلى واقع يبنى عليه الأحكام ويؤسس عليه القضايا..

هذا هو التفسير الوحيد الذي لا تفسير سواه..

وعلى ذلك فإن ما انتهى إليه الكاتب من أن اتجاه «نجيب محفوظ» كان إلى هدم الدين وإلى تفكيك بنائه المترابط والقائم على الإيمان بالرسـل، والتصديق بالوحي. وهو الذي قال به الكاتب لا أسـاس له من الواقع، ولا سـند حقيقيا له، وإنما هو محض مقولات مرسلة، وأقوال تنطلق عفو الخاطر، وحسـبما يجرى بها اللسان، حتى وإن كان «منفلتا» في بعض الأحيان.

والـذي نقـرره أن القسـم الأول من الرواية قام على أسـاس أن هناك أناسـا مصلحين يستلهمون قلوبهم ويستنهضون عزائمهم، لينطلقوا إلى عمل الخير، وتحرير البشرية، وأنهم يتحملـون في سـبيل تحقيق أغراضهم ما يلقون من أذى ومتاعـب.. وأنه قد أعقب هؤلاء عصر– وجد فيه من آمن بالعلم، واتخذ منه سبيله.. وهذه حقائق غير منكورة.. فماذا قال الكاتب عن هذا العصر أو عن تناول الرواية له.؟؟

٢ - عن عصر العلم:

تسـاءل الكاتب.. كيف تمـت عمليتا الهدم والبناء، أو الإعدام والإحياء؟ هذا تسـاؤل مهم.. أما الإجابة عليه فيصورها الكاتب على النحو التالي:

جـــى ء بـ «عرفة» رمز العلم الحديث – ونائبــه «حنش» – ثم وضع بإرادتهما التاريخ الدينى النبوى ممثلا فى «الجبلاوى وأدهم ورفاعة وقاسم»، وبدأت العمليتان معا:

ضربــة بالمعول فـــى صرح التاريخ الدينـــى النبوى، ثم لبنه فى صـــرح العلم الحديث، وتعدّدت ضربات المعول فى الهدم، وتعددت كذلك عملية البناء بوضع لبنة جديدة محكمة، وسار الفصل الخامس «عرفة» على هذا النظام.

كل انخفاض فى جانب التاريخ الدينى النبوى يقابله ارتفاع فى جانب العلم الحديث.

وكل نقص فى الأول يقابله زيادة فى الثانى، إلى أن وصل الأمر إلى تنفيذ حكم الإعدام التــام فـــى الدين، وعلى التـو قام العلم الحديث.. وجلس على عرش الرحمن، وحلّ محله ومكانه هذا فى الرواية وليس فى الواقع.

والـــذى قام بتنفيذ حكم الإعدام فى الدين، هو العلم الحديث نفســـه ممثلا فى «عرفة» قاتل «الجبلاوى» فى الرواية.. الخ.

والذى نود أن نقرره عدة أمور مستمدة من الرواية نفسها:

١ – الأمر الأول: أن اعتبار «الجبلاوى» ممثلا للذات الإلهية، ليس هو بيقين التفســـير الصحيـــح لرمـــز «الجبلاوى» وإن كان الكاتب يرى غير ذلك فهو ورأيه، ولا يمكن أن يقول بقول الكاتب إلا من يسايره دون تأمل أو تفحص، ودون أن يكون لديه يقين بضرورة التفرقة فى الفهم وترتيب النتائج بين الكتب التى تكتب فى الدين والتاريخ وســـير الأنبياء، وبين الأعمال الإبداعية: القصائد الشعرية، الروايات القصصية، المسرحيات الفنية.. الخ.

٢ – والأمر الثانى: هو أن «عرفة» وإن كان قد قدم مخترعات مذهلة إلا أنه لم يقم بأى خطوة يحارب بها الدين، فهو شخص يعرض بضاعته، ويطرح تصوراته، وليس من شأنه أن يهاجم من سبقوه أو يسيء إليهم.

٣ – والأمر الثالث: أن الواضح والثابت من تسلسل أحداث الرواية هو أن «عرفة» حينما ارتكـــب جريمة القتل ما كان بقصد، بل وما كان يظن، أن القتيل هو «الجبلاوى» بل كان اعتقـــاده هو أنه أحد التابعين، وأن قتلـــه كان ضرورة اقتضتها مهمته التى كان متجها إلى تحقيقها، وهى الكشف عن الحقائق.. وأنه عندما علم فيما بعد بأن المقتول كان «الجبلاوى»

حزن حزنا كبيرا، بل وراح يفكر جديا فى تطوير وسائله علّه يصل إلى وسيلة يتمكن بها من إحياء «الجبلاوى» ويرده بها ثانية إلى الحياة.

٤ – أنه أيضا ضمن أحداث الرواية تلك السيدة العجوز التى التقت «بعرفة» وأخبرته بأن «الجبلاوى» كلّفها بأن تبلغه رضاه عنه.. وقد سعد «عرفة» بتلك السعادة سعادة كبيرة سجلتها سطور عديدة من الرواية.

٥ – والأمر الأخير أنه رغم ذلك كله فلم يتحقق الانتصار «لعرفة»، بل قتل شر قتله، ولقى هو وزوجه أسوأ مصير.

٦ – ونخلص من ذلك كله إلى أنه لم يكن هناك هدم وبناء، وأنه لم يتحقق النصر للعلم، بل قد توحى الرواية: بأن العلم وإن كان ضروريا إلا أنه لم يفلح وحده فى إصلاح الكون، ما لم يصاحبه الإيمان الدينى الخالص.. اللهم إلا إذا أخذنا بالتفسيرات التى تقوم على شق القلوب للتعرف على حقائق النوايا؛ وما تخبئه الصدور!

* * *

١٣ - والخلاصة التى يصل إليها الكاتب.. خلاصة مرفوضة فهى غير صحيحة:

• حيث يخلص الكاتب من عرضه السابق إلى النتيجة الآتية:

«إن هذه الرواية تترجم فى وضوح: أن كاتبها ساعة كتبها كان زاهدا فى الدين كل الزهد، معرضا عنه كل الإعراض، ضائقا به صدره، أعجميا به لسانه فراح يشفى نفسه الثائرة، ويعبِّر عن آرائه فى وحى الله الأمين: بهذه الأساليب الرمزية الماكرة، والحيل التعبيرية القادرة، رافعا من شأن العلم الحديث إلى مكان الثريا، واثقا فيه كل الثقة، حتى أجلسه فى روايته على «عرش الديانة» مناصرا العلمانية الجاهلة، على دين الله القيم ورسالته السامية».

فالرواية – وهذا واقعها – رواية آثمة «مجرمة» بكل المقاييس وطنيا وقوميا ودينيا.

• والتماس البراءة لها: مستحيل، مستحيل، مستحيل..

اللهم إلا إذا طمسنا قلوبنا، وأعمينا بصائرنا، وسددنا سمعنا.. ثم هتفنا مع أولاد الحارة، وقلنا كما قالوا: لا شأن لنا بالماضى، ولا أمل لنا الا فى سحر «عرفة».. ولو خُيرِّنا بين «الجبلاوى» والسحر لاخترنا السحر...

وهكذا أصدر الكاتب حكمه بالإدانة، لأن التماس البراءة مستحيل مستحيل...

ولكننا نقول للكاتب إن الإدانة لابد وأن تقوم على أسبابها وأسانيدها، وأنتم يا سيادة الكاتب لم تقدموا ثمة سند أو دليل يمكن لكم أن تبنوا عليه حكمكم فهو من ثم حكم جائر، ويقوم على أساس «إدانة» مسبقة حتى قبل أن تقرأوا الرواية، ويقوم على أساس تحديد «نيّة» الكاتب حتى قبل أن يكتب حرفا من روايته، وبذلك خلصتم إلى إدانة الكاتب وإدانة الكتاب ظلما وعدوانا لفرض افترضتموه ظلما، ونية سابقة بيتموها بالنسبة للكاتب منذ زمن، ثم زرتم الأراضى المقدسة، فلم تجدكم فتيلا فى ضرورة التماس العدالة والتريث فى الإدانة، وعدم التعجل فى إصدار الأحكام..

* * *

وقد أنهى الكاتب مؤلفه باقتراح أبداه للمؤلف، ولا نود أن نحرم القارئ من هذا الاقتراح.

١٤ - الاقتراح المرفوع من الكاتب إلى المؤلف:

أ – فى ختام كتابه يذكر الكاتب كلاما غير طيب وإن حاول أن يحسّنه.. فقد قال:

«بعد التجربة المرّه التى عشناها مع الأستاذ «نجيب محفوظ» وأولاد حارته يطيب لنا أن نتقدم بكل إخلاص إلى أديب مصر والعروبة الأستاذ «نجيب محفوظ»، بهذا الاقتراح الذى لنا فيه مطلبان».

ولا ندرى ما الذى جعل التجربة مرة، فما كان هناك داع للمرارة، وبخاصة وقد كنا بصدد عمل إبداعى متميز، أحدث صداه وتأثيره، وتُرجم إلى أكثر من لغة ونال تقدير العالم، ولم يبخسه حقه إلا بعض بنى وطنه ممن أساءوا الظن، وبنوا أحكامهم على المغالطات والأوهام، وكانت أحكامهم جميعها أحكاما صدرت منهم «قبل المداولة» والمداولة تعنى التدارس بين أعضاء «لجنة الحكم» قبل الاتفاق على منطوق ومضمون «الحكم».

ب – ما هما الطلبان اللذان للكاتب عند المؤلف:

الأول: «مطلب احتياطى» حاصله أن لا يأذن الأستاذ «نجيب محفوظ» بإعادة طبع أو نشر أو إذاعة «أولاد حارتنا» بأية لغة من اللغات وبخاصة اللغة العربية، لا حجرا على حرية الفكر، ولكن حسما لذرائع «الكفر» لأن فى إعادة نشرها إثما كبيرا نحسبه هينا، وهو عند الله عظيم..

ونطمئـن الكاتـب أنه إلى يوم وفاة المؤلف إلى رحمة مولاه، فلم يعط إذنا بطبع أو نشـر الرواية فى الداخل، وإن كان لم يستطع أن يمنع نشرها فى الخارج أو ترجمتها لأكثر من لغة، ومن ثم فقد برئ من إثم الإذن بنشـرها وهو إثم عند الله عظيم – فيما يرى سـيادة الكاتب!!

ولكننـا نقرر ونحن نبدى مزيد الأسـف أن الرواية قد طبعـت بعد وفاة المؤلف، وحتى ديسـمبر ٢٠٠٩م ثمانى طبعات متتالية داخل مصر ومنها جرى توزيعها إلى سـائر الديار العربية.!!

وما نعتقد أن هناك وزرا – أو إثما – فى ذلك يتحمله المؤلف – رحمه الله – وإن كان لابد وأن نقول بوجود الإثم، فسوف يتحمل وزره الكاتبان المستنيران اللذان كتبا عن الرواية مـا برّأهـا وما جعلها عملا مباحا، غير محرّم تداوله... ومع ذلك فنحن ندعو لهما بالمغفرة والخير جزاء ما خطت يميناهما.. والله ولى التوفيق.

الأمر الثانى: «مطلب أصلى حاصله أن يستجمع الأستاذ «نجيب محفوظ» كل مقومات الشـجاعة الأدبية والإيمانية ويعلن للعالم كله «تبرّأه» من هذه الرواية الآثمة المحرّمة بكل المقاييس، لأن فى بقائها منسوبة إليه تبعة تنوء بحملها الجبال.».

ونقـول للكاتـب إن المؤلف – حـال حياته – لم يأخذ برأى الكاتـب، ولم ينزل عند نصيحته، ومات والرواية منسـوبة إليه ويعاد نشـرها المرة بعد المرة تحمل اسمه دون إنكار أو اسـتنكار أو اسـتغفار.. ولعل «نجيب محفوظ» وهو المؤمن الصادق الإيمان – كما أعرفه – كان يـدرك أنـه لم يغضب ربه، فى قليل أو كثير، وأنـه إنما كتب روايته لعمل فنى لم يرد به خروجا على الدين، ولا مساسا بالعقائد. والواقع أنه بعد قراءة كتاب «الجوانيات» وكتاب الشيخ «عبد الحميد كشك»، تبدو الحقيقة جلية، وهى أننا بصدد عمل فنى إبداعى نتذوقه بمشاعرنا، ونتفهمه بإحساساتنا، ونتوه فى أجوائه مطلقين لخيالاتنا العنان.. دون أن يكون ثمة مسـاس أو إساءة إلى ذات مقدسة، فللفن الملتزم مجالاته. وللدراسات الدينية والتاريخية أوضاعها ومسـاراتها.. فلا نخلط الأوراق. ولنحفظ للدين قداسـته. ولنرتفع به بألا ندخل فى مجاله ما هو بعيد عنه، غير متصل به..

وسـوف تتضح الأمور أكثر مع تقدم الدراسـة، حيث نعرض فيما بعد العديد من الكتب والفصول التى تناول كل منها «أولاد حارتنا» من زاوية أو من زوايا مختلفة.

* * *

المبحث الثالث

عن

«حكاية أولاد حارتنا»

للدكتور – عبد الجليل شلبى

تمهيد:

هذا كتاب أمره هينٌ، حتى وإن أخطأ التفسير ومال إلى الأخذ بالتفسير الدينى لرموز الرواية، إلا أنه لم ير فيها كفرا أو ما يشبه الكفر، ولم يرفيها مساسا بالدين من أية ناحية، وقد عمد فى «المقدمة» وفى التعقيب إلى تناول الرواية بشئ من التحليل والنقد، إلا أنه فيما بين المقدمة والتعقيب تناول عرض الرواية تحت عنوان: «رمزيات أولاد حارتنا» وقد حاول أن يجمع بين ما ورد فى الرواية من ناحية وبين ما ورد فى العهد القديم ثم فى القرآن الكريم من أحداث مقابلة من ناحية أخرى.. فهو يأخذ الأمور بظاهرها، وفى بساطة، ويرى أن إرجاع ما تضمنته الرواية إلى ما تضمنه القرآن – ومن قبله العهد القديم – ومع إجراء مقارنة ليبرز ما هنالك من فوارق.. رغم إن الفهم الصحيح يوجب عدم الخلط بين الرواية باعتبارها عملا فنيا إبداعيا – وبين نصوص وردت فى القرآن الكريم وتضمن العهد القديم – من قبل – ما يقابلها.. لوجود اختلافات ضخمة ليس فقط فى مضمون وتسلسل الأحداث وإنما لوجود تلك الاختلافات الكبرى فيما يعنيه المؤلف من وراء ما اختار من أحداث، ولم صاغها على هذا النحو بالذات؟ ولم زاد أو أنقص أو غيَّر أو بدَّل أو ابتكر من أحداث تبعد بالرواية إلى درجة كبيرة عما يقابلها من نصوص ذات طابع دينى. لأن الفهم الصحيح «لأولاد حارتنا» هو أنها «عمل روائى» إبداعى وليست نصا دينيا، أو كتابا تاريخيا. ولا ندرى لم يروق للبعض أن يهمل هذه الفوارق، ويجهد نفسه فيما يعتبره «فكا للرموز» وإرجاع كل حدث ورد فى الرواية إلى ما يقابله من الأحداث أو الأشخاص الدينية..

• ونتناول فيما يلى الكتاب بأقسامه الثلاثة على النحو الذى سبق أن أثبتناه:

أ - المقدمة:

يذكر فى مقدمة كتابه الصادر عن سلسلة «كتاب اليوم» بأنه يقدم خواطره عن الرواية أى أنه ينفى أن يكون كتابه بحثا أو نقدا أو دراسة، فهو مجرد خواطر - وهو - فى ذلك يقول:

١ - هذه خواطرى:

«عن رواية «أولاد حارتنا» التى أخرجها الكاتب الكبير الأستاذ «نجيب محفوظ» من نحو ثلاثين عاما (يعنى ذلك أنه يؤلف كتابه فى أواخر الثمانينيات) كنت أقرؤها فى جريدة الأهرام، أو على الأقل كنت أقرأ الكثير من فصولها. وأحضرت فى ذهنى إذ ذاك خواطر كثيرة عنها، وعما يريد منها كاتبها».

ثم يضيف إلى ذلك قوله عن خواطره التى طفرت فى ذهنه وقت نشر الرواية فى أواخر عام ١٩٥٩م - فيقول:

«بدا لى أنها تصف ظلم الإنسان للإنسان، وبغى الأقوياء على المستضعفين، وهذه نزعة الإنسان منذ هبط «آدم» إلى الأرض، وكان يريد لأولاده أن يعيشوا فى سلام ومحبة، ولكن عكر هذا السلام، ونغص تلك المحبة ابنه قابيل بقتله أخاه، وكانت هذه أول جريمة وقعت فى الأرض، ثم تتابعت الجرائم، وكان المصلحون يظهرون بين حين وحين يحاولون نشر العدالة وإنصاف المظلومين، وبثّ التعاليم والوصايا التى تبعث الطمأنينة فى القلوب، ومع ذلك كان الظلم ينتصر حتى على الأنبياء، فيذهبون، وتذهب أيضا تعاليمهم ووصاياهم... ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين، بل اتخذ الظالمون منه سلاحا لهم حتى على العلماء. الظلم إذن طوفان غامر يجرى فى عروق الآدميين، وليس دعاة الإصلاح إلا مرقدا موقوتا، يفرح الناس به إلى حين».

وهى إشارة لها مغزاها - فالرواية فعلا تحكى الكثير عن الظلم الواقع على الإنسان، والذى وقع من الإنسان على الأديان، وأنه يجرى من أغلب الناس مجرى الدم فى العروق، لكن ذلك لم يمنع من ظهور المصلحين ودعاة الخير بين الحين والآخر - وقد تنبه الكاتب إلى ما أساء الآخرون فهمه، فلم يعف سلاح العلم الحديث من استخدامه فى تأييد الظلم.. فكان قوله: ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين، بل اتخذ الظالمون منه سلاحا لهم حتى ضد العلماء.

٢ – ويضيف الكاتب قوله:

«وخاطـر آخر انقدح فى ذهنى بعد أن قابلت الأسـتاذ «نجيـب»، وحدثنى عن روايته: (ثرثـرة فـوق النيل) فقد قال إنه أراد بها تصوير العزلـة التى فرضت على المثقفين فى العهد الناصـرى، فلـم يبق لهم عمل وهـم معزولون عن حياة الناس إلا ضيـاع الوقت فى العربدة، والشـراب، خيِّل إلىّ – ولم أفاتحه فى ذلك – أنه يشـير إلى ما كان يعانيه الناس فى ذلك الوقـت من كبت وإرهاق وانتزاع أملاكهم منهـم فى موجة التأميم التى أوذى الناس منها ولم يستطعيوا حتى أن يجأروا بالشكوى، فالرواية تقول لهم لقد أوذى الأنبياء من قبل ولاقوا فى سبيل دعواتهم ما لاقوا، فليكن لكم باتبًاعهم أسوة، وعسى أن ينتهى الليل ويأتى نور النهار».

وهـذا دليل علـى أن قراءة الرواية قد تولـد الكثير من الخواطـر، وتوحى بالعديد من المعانـى، لأنها عمل إبداعى، تتولد عنه العشـرات من الإيحـاءات وتثير ما لايحصى من المشاعر والأحاسيس..

٣ – ويختتم مقدمته بخاطره الثالث:

حيـث يذكـر: «كان الخاطر الـذى يضايقنى هو إغراق الرواية فى الشـرب والسـكر والمخـدرات، حتى الأنبياء المصلحون الذين اختارهم لم يبتعدوا عن الغرز، ولم يتنزهوا عن الشـراب والتحشـيش، ولكن هذه خصيصة «نجيب»، فمعظم رواياته تحوى هذه المظاهر، ويبدو أنه لانغماسه فى الحياة الشعبية لاحظ هذه الظاهرة، وهى لا تزال سائدة فى حياتنا المصرية، رغم التشديد ورغم قسوة العقوبات».

والواقع أن «نجيب محفوظ» لم يرد بأى من تحدث عنهم وصُورهم فى روايته شـخصا له قداسة، أو يُوحى إليه من السماء، إنما روايته – كما أرادها – رواية شعبية لأشخاص من البشر، لكل منهم حسناته وسيئاته، ولكنهم جميعا بشر من البشر، حتى «الجبلاوى» ليس إلا بشرا طال به العمر والمقام.جيتى حان أجله، ومن هنا وإذا كنا بصدد رواية تجرى فـى حارة شـعبية، وكان مـا ورد من صفات يتفق مع هذا الوضـع، فإنه ليس لنا أن نلوم المؤلف، اللهم إلا إذا كان اللوم على أنه لم يكن من الضرورى مجاراة «الواقعية» التامة فى التصوير.. فقد كان يحسـن التخفيف منها بعض الشـىء، ولكننا ونحن القراء ليس لنا أن نقترح على الكاتب كيف يكتب، بل علينا أن نتلقى ما كتب، ثم نبدى من بعد ما يتراءى لنا من ملاحظات، أو ما تثيره كتاباته بداخلنا من مشاعر وأحاسيس.

* * *

ب- رمزيات «أولاد حارتنا»:

لم يقتصر الكاتب عمله على فك الرموز، أو إبداء رأيه بالنسبة لحقيقة الأحداث كما يراها، وكما قدّرها.. بل مضى فى سبيله مفترضا أن ما توصل إليه هو الحق وأن المؤلف إنما يرمز بأسماء شخصياته إلى ما يقابلها من الشخصيات الدينية وإن كان لم يفته ما أدخله المؤلف من نسيج شعبى يغلف الأحداث والأشخاص وسوف نتوقف أمام بعض ما توصل إليه الكاتب من «مفاهيم» محددة فنعمد إلى مناقشتها والتعليق عليها..

١ - هيكل الرواية:

يرى الكاتب أن المؤلف عرض فى روايته للكون منذ بدء الخليقة، منذ أن أمر الله - سبحانه - الملائكة أن تسجد «لآدم» فأبى «إبليس»، وعصى ربه، فطرده المولى من الجنة ثم إغراء الشيطان «لآدم» و«حواء» بأن يأكلا من الشجرة المحرمة مما كان سببا فى طردهما من الجنة، وقد تكاثر نسل «آدم» وبعث الله الرسل مبشّرين ومنذرين، فكان لكل نبّى مع قومه قصة وجهاد.. هذا هو هيكل الرواية - كما يراه الكاتب الذى ختم هذه الفقرة بقوله: «ونحن نمر بفصولها لا للشرح والتفصيل، ولكن لبيان الرمزيات التى تحتويها وظاهر من استعراض الرواية أن المؤلف لم يقف عند الروايات الشعبية، بل رجع إلى الكتب المقدسة، لأنه ذكر تفاصيل ودقائق لا يعرفها الشعبيون السذج، وسنشير إليها عند عرضها..».

والذى نراه أن الكاتب الفاضل انطلق من اليقين بأن الرواية إنما تقوم على الرمز، وأنها وقد عرضت لما ارتأى الكاتب أنه بصدد رواية تضمنت أحداثا توحى بأنها تعنى ما يقابلها من أحداث تاريخ الأديان من أول «آدم» حتى «محمد».. فقد راح فى مقارنات عديدة، بين ما روته الرواية، وبين ما هو وارد فى القرآن، بل وعرج على ما تضمنه العهد القديم، وراح يردّ الأمور إلى مصادرها، ويستكمل ما يجده من نقص، ويصحّح ما قد يكون هناك من خلاف.. ومضى كذلك فصلا بعد فصل حتى استكمل قراءته للرواية بأكملها.

ونحن من جانبنا لن نتابعه فى ذلك لسببين:

أولهما: أننا قمنا بتلخيص الرواية من واقع ما تضمنته الرواية بين دفتيها، وأعفينا القارىء من هذه الدراسات المقارنة التى لا جدوى منها.

ثانيهمـا: أننا لا نشـايع الكاتب الرأى الذى يقول إن المؤلـف إنما يريد أن يقدم قصة الكون، وحكاية الخليقة منذ بدايتها.. فمن قال بهذا الرأى كان لابدّ له أن يعود بشخصيات الرواية إلى ما يقابلها من أشـخاص تاريخ الأديان بما يحتويه من قصص عن الرسـل، ومن أحـداث فى التاريخ، ومن أماكن وقعت فيها تلـك الأحداث.. وكلها بالطبع وقعت بعيدا عن الحارة، بل وإن معظمها وقع بعيدا عن مصر بجميع أقاليمها.

وعلىذلك فلا نجد داعيا لمناقشـة ما قدمه الكاتب فى هذا الصدد وإنما نكتفى بالاشارة إليه، مع الإشارة إلى تقديرنا لما بذله من جهد.

٢ – تقدير جهد الكاتب:

لقد تعرض الكاتب لفصول الرواية، فصلا بعد الأخر: «أدهم» – «جبل» – «رفاعة» – «قاسم» – ثم «عرفة»..

وقـد حرص كما ذكرنا من قبل على أن يوضـح الرموز، وأن يبيّن أصل الرواية فى كل جزئيـة، ليبـين أوجه النقص أو الخلاف. بل وحرص علـى أن يقارن بين ما ورد فى كل جزئية فى العهد القديم، وبما ورد فى القرآن الكريم.

ولا شك أن الكاتب بذل فى ذلك جهدا كبيرا، وهو موضع تقدير وبخاصة لأنه:

جرى على نحو فى غاية الدقة والأمانة

لم يحتقر ولم يحقّر ما كتبه المؤلف فى أى مقطع أو جزء، بل حرص على إبراز ما تميزّ به من تفاصيل تضفى على ما كتبه الروح الشعبية.

وليس من شك فى أن هناك تقاربا كبيرا بين الأشخاص والأحداث التى وردت فى الرواية، وبين ما يقابلها من الأحداث التاريخية ولكن علينا أن نأخذ فى الاعتبار الحقائق الآتية:

الحقيقة الأولى: أن هذا التقارب وإن كان كبيرا إلا أنه ليس تشابها بالمرة.

الحقيقة الثانية: أن الوسـائل والأسـاليب فى الرواية تختلف تمام الاختلاف عن مثيلاتها فى التاريخ.

الحقيقة الثالثة: أن مصدر الرواية هو خيال المؤلف وفكره، وبالتالى فكل الأحداث تنطبع بطابعـه، وتتميـز بما يتميز به أدبه.. وتفترق أحداث الرواية من هذه الناحية افتراقا كبيرا عما يقابلها من أحداث التاريخ..

الحقيقة الرابعة: أن أحداث الرواية ذات طابع بشرى، تماثل ما يجرى فى دنيا الناس: وتحـاول أن تحاكيهـا، بينما أن أحداث التاريخ مصدرها سمـاوى، وطابعها يختلف عما يجرى فى دنيا البشر أىّ اختلاف!

الحقيقة الخامسة: أن أحداث الرواية بكل فصولها تكوّن بناء متكاملا على نمط شعبى: ويتسـق مع كونها أحداثا تجرى فى حارة شعبية.. بينما أحداث التاريخ جرت فى أماكن متعددة، دين شـعوب متباينة، وتتوزع العبر فيها خلال ألاف السـنوات وتتنوع باختلاف الأماكن، وليس لها تماسك فيما بين بعضها البعض كما هو الشأن فى أحداث الرواية.

وعلى ذلـك فنحن مـع تقديرنا لجهد الكاتب، وتحيتنا لموفور علمه، وسـعة اطلاعه لا يسـعنا إلا أن نخالفه فى أن الرواية لها مفهومها الخاص بها، وبناؤها الذى تفردت به، وهى وإن كانت لها صلة قربى بأحداث التاريخ، إلا أنها ليسـت بالصلة الوثيقة – فلكل منهمـا اسـتقلاله، وذاتيته المتفردة.. وذلك أن أحداث التاريـخ لها دلالاتها الروحية التى تمس الشعور الدينى، وترتبط بالعقيدة.. أما أحداث الرواية فهى لا تعدو أن تكون عملا فنيا وذاتيا.. وأيا ما كان حظه من الإبداع، ونصيبه من الإجادة – فهو لا يزال من عمل البشر وفى حدود طاقات البشـر وإمكانياته، ومن ثم فلن يبلغ مبلغ الأحداث التاريخية بحال من الأحوال، ويظلاّن ولكل منهما مجاله.. وعالمه.. وتفرده الخاص به.

* * *

جـ- **تعقيبـات:**

• نختار أهم ما أورده الكاتب من تعقيبات لنعلق عليها – ففى مواضع مختلفة كتب ما يأتى:

١ – كتابتـى عـن هذه الرواية هى حـلٌ لرموزها، ومقابلة بين ما جـاء فيها، وما جاء عن أحداثها فى كتب التاريخ والأديان، ومما سبق نجد أن موضوع الرواية كلها يتركز على رسالات الأنبياء الكبار، وهى فى عرض حوادثها تحتذى سـيرهم وجهادهم ومواقفهم بين الناس، وأمام الحكام، وقد خفت صوت هذه الرسالات، ونسى الناس أو أعرضوا عن هذه الدعوات أمام التقدم العلمـى الحديث.. وقد فسّـرت بعض الرموز فى الرواية كما بدت لى، ويوم أن قابلت الأسـتاذ «نجيب» وحادثته فى شـأن هذه الرواية لم أكن على تذكر جيد لأحداثها.. ولكن بدا لى منه أنه يريد تأكيد الصورة المصرية بإدخال هذه الأحداث، وهى أخلاق شعبية مصرية.

٢ – قال الأستاذ «نجيب»: إنه لا يتحدث عن الله – تعالى – ولا عن الكون، وإنما يصف حارة شعبية، بها رجل مقتدر له فى الحارة وقف وله نظار، وقد جاء فى أول الرواية: إن الرجل كبر ويريد أحد أبنائه أن يتولى النظارة!

هذا كلامه..

ولكن أى رجل يعمِّر كل هذه السنين! توالى على الحارة نظار وفتوات ومصلحون، وهو حى لم يمت إلا بعد مئات السنين..

٣ – ويختم الكاتب حديثه بقوله: «هذه انطباعاتنا عن هذه الرواية الكبيرة الضخمة وهى مليئة بالصور والمناظر الشعبية، ولا مغزى لها إلا أنها تصور شعبا فقيرا يمتهن المهن الحقيرة، وجبابرة أقوياء يستهينون به ويسخرونه لما يريدون وينهبون أملاكه وأمواله، والشعب يصبو لإصلاحات المصلحين ولكنها لا تدوم ولا تلبث إلا قليلا، وتحت ضغط المعادين للمصلحين وجبروتهم يضطر الناس إلى شتم المصلحين الذين جاءوا لإنقاذهم.. هذه الصورة ليست مجرد صورة شعبية، ولكنها تمثل حال مصر فى مختلف العصور، بل وحال الناس فى أمكنة وظروف شتى مختلفة»

ولنا أن نقرر أن الكاتب هنا وإن أيقن أن الأحداث التى تضمنتها الرواية إنما هى ترديد لأحداث تاريخية إلا أنه مع تقدمه فى الحديث توصَّل إلى أن المؤلف إنما أراد بها أن يعبر عما عانى أهل مصر من ظلم وقهر وسوء معاملة على مر العصور، وأنه لذلك روى الأحداث – حتى ماله أصل فى التاريخ – فى إطار شعبى، مغلبا الطابع المصرى.. وكأنه يريد أن يقول إننا بإزاء عمل روائى يتحدث عن مصر والمصريين ولكنه استعان بالتراث الدينى والشعبى عن الأنبياء والمرسلين.. ولنا أن نؤكد أن «نجيب محفوظ» لم يقصد بحال من الأحوال أن يعبّر عن الذات الإلهية بـ «الجبلاوى» وإذ كنت تتساءل وهل لبشر أن يعيش مئات السنين وأن يطول عمره كما طال عمر «الجبلاوى»؟ فإننا نقول إننا بصدد عمل روائى وليس العمل الروائى بمطلوب منه أن يتوافق دائما مع المنطق وأن يستقيم مع الواقع والكاتب يعلم الكثير ولا شك عن «أدب اللامعقول» وإن العمل الروائى يقبل بالطبع ما لا يقبله واقع الحياة.. فهو عمل يقوم فيه الخيال – بل والأحلام – بالدور الأول.

وعلى ذلك فسوف نظل نكبرك، ونقدرك يادكتور «عبد الجليل شلبى» حتى وإن اختلفنا معك فى تفسير الرموز.. ولك منا ألف سلام.

* * *

المبحث الرابع

عن

«أولاد حارتنا فيها قولان»

للكاتب محمد جلال كشك

هذا كتاب وإن كان وجيزا، بل فى غاية الإيجاز، لكنه ينطوى على الكثير مما يدحض أقوال من أفتوا بكفر الكاتب، وتكفير الرواية، وأجازوا قتله.. حتى قبل محاكمته وثبوت رفضه أن يتوب إلى ربه..!!.

١- شعار الكتاب:

• كان الشعار الذى زينَّ به الكاتب الصفحة الأولى من كتابه هى هذه الأسطر:

«إن المسلم الذى يتعرف على الله سبحانه وتعالى من ملامح شخصية «الجبلاوى»، هو الذى يستحق الاستتابة، ويجب عليه أن يعيد تثقيف نفسه فى علم التوحيد هو» مسلم ظن بالله الظنون، ولم يقدُّر الله حق قدره... والسماوات مطويات بيمينه.. سبحانه وتعالى عما يشركون».

٢- كلمة عن الكاتب والكتاب وعن الجائزة:

والكاتب هو الأستاذ «محمد جلال كشك».. الكاتب المعروف، وله مؤلفات عديدة ومعروفة، يتسم بالشجاعة والجرأة، وقول الحق..

والكتاب صادر عن دار الزهراء للإعلام العربى – فى عام ١٩٨٩م – وهو صغير الحجم فى ستين صفحة من الحجم المتوسط.

«أدلى الكاتب فى هذا الكتاب بدلوه، أو قدّم شهادته فى وقت مبكر، عقب فوز المؤلف بجائزة نوبل، ولذلك تناول فى قسمه الأول الحديث عن الجائزة، وما أثارته من خصومات، وما جددته من عداوات».. وكان مما قاله:

من العسف تقييم الجائزة الآن بمواقف اللجنة من عشرين عاما، ..وفى النهاية فإن فوزنا بالجائـزة، يُعد تقديـرا مضاعفا، لأن لجنتها إذا انحازت فهى تنحاز ضدنا، وليس معنا، فهى مثل غيرها من المؤسسـات العالمية لا ترجونا ولا تخشـانا، وهذا ما عنيته فى برقية التهنئـة التى بعثت بهـا إلى أديبنا الكبير فور إعلان فوزه بالجائزة إذ قلت: «إن كان ثمة عنصر سياسى فى الجائزة، فهو الذى أخّر حصولك عليها لعشرين عاما»

٣ - رأى الكاتب فى الرواية:

• قال الكاتب:

«إن شـئت أن أجمل رأيى عنها فأنا أقول: إن المسـلم الذى يتعرف على الله سـبحانه وتعالى من ملامح شـخصية «الجبلاوى»، هو الذى يسـتحق الاسـتتابة، ويجب عليه أن يعيد تثقيف نفسه فى علم التوحيد، وهو مسلم ظنّ بالله الظنون، ولم يقّدر الله حق قدره.. والسـماوات مطويات بيمينه - سـبحانه وتعالى عما يشـركون.. ولكـن لأن الإطالة لازمة والإسـهاب ضرورى فى حوار المتخلّفين فأقول: «الجبـلاوى» الذى قدّمه أديبنا هو رجل يسـعى على قدميه، ويلبس جلبابا. ويبنى لنفسـه بيتا (يحتمى فيه من الخوف والوحشة وقطاع الطرق).. وهو (جبار فى البيت كما هو جبار فى الخلاء).. (فتوة، له وجه إذا غضب (القهر حتى حاكى لون النيل فى احتدام فيضانه)، وهو إذا جلس.. الخ»

وينقل الكاتب عن المؤلف ما أضفاه على «الجبلاوى» من صفات بشرية، وما نسبه إليه من تصرفات لايأتيها إلا بشر.. كل ذلك ينقله من صفحات الرواية.. ثم يتساءل الكاتب:

• ما وجه الشبه والاشتباه؟

ما مبرر توقيف «نجيب محفوظ» بتهمة العيب فى الذات الإلهية؟

• للإجابة عن هذا التساؤل يذكر الكاتب ما يأتى: (ص ٤٧ - ٥٣ - المرجع المذكور)

أ - نعم الرواية لها علاقة بالأديان وقصة الخلق، ولكن كيف؟ ولماذا رأينا أنها لاتسىء إلى الدين؟ الأمر أعمق مما يذهب إليه المفسرون إنها قضية قديمة شديدة التعقيد، خطيرة النتائج.

ب - فقـد وردت قصة الخلق فى التـوراة، مزيجا من ومضات الوحى الإلهى، ولكنها أقل من النذر اليسـير، مخلوطة بركام هائل من خرافات الشعوب الوثنية، وتخيلات كتبة التـوراة على مر القـرون.. وقد كان تأثير هـذا الكتاب محدودا عزله اليهـود عن العالم، وحصرهم فكرهم فيما بينهم.

جـ – فلما جاءت المسيحية وصدقت على التوراة المتداولة وسمتها العهد القديم أعطت قدسية للكتاب ورواجا هائلا لروياته، وتأثيرا كبيرا لهذه الروايات وبخاصة فيما يتصل بتصور الذات الإلهية.

د – فلما جاء الإسلام بدعوة الحق سبحانه وتعالى، على لسان من لاينطق عن الهوى، كان موقفه واضحا لا تناقض فيه ولاحرج، فقد أعلن أن هذا الكتاب الذى يحمل اسم التوراة هو من صنع البشر، وهو غير التوراة التى نزلت على «موسى» والتى يقر بها الرسول والمسلمون، وهو الموقف الطبيعى من دين جاء بأنقى صيغة للتوحيد..

هـ – وكان ذلك كفيلا بتحرير المسلمين من التصورات التوراتية والترهات بل والفضائح التى وردت بها.. فالإسلام فى صيغته القرآنية.. وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وبنفيه صحة التوراة، أنقذ المسلمين من هذه الترهات..

و – وللأسف عندما ظهر المفسرون والإخباريون والمحدِّثون استسهلوا الاعتماد على الرواية الإسرائيلية فى التوراة، تلك الرواية الغزيرة التفاصيل إلى حد الثرثرة واستعانوا بها فى تفسير وتفصيل الإشارات التى وردت فى القرآن لبعض الأحداث أو الشخصيات التى جاءت فى التوراة، ثم اغترفوا من هذه التفاصيل.. وهكذا تسربت تلك الإسرائيليات إلى الثقافة الإسلامية..

ز – وأخيرا وكمحصلة لما ذكرنا ولما فاتنا حصره فقد تسرب إلى الفكر الإسلامى – للأسف – ملامح إله التوراة، رغم ما اتصف به الله من تنزيه عن صفات «يهوه» أو «آيل» الذى يعمل ويتعب ستة أيام فى الأسبوع، ثم يستريح فى اليوم السابع من التعب..

ويخلص من ذلك كله إلى قوله هذا هو الإله الذى شبه لهم فى شخص «الجبلاوى».

ثم يضيف الكاتب قوله: .....

«أديبنا الكبير عمد إلى رواية التوراة هذه التى استقرت فى الفلكلور الدينى العالمى، فأعاد صياغتها.. وهو ما فعله عشرات الفنانين من قبله؛ إلا أن خلفيته الإسلامية لم توقعه فيما يمس تصورنا لله سبحانه وتعالى؛ بل لعله غالى فى الاحتياط لهذه الشبهة أو المظنة، ومن هنا كان حرصه على إضافة تفاصيل شديدة الآدمية لرمزه، ولو كان يهدف إلى الإيحاء بأنه يتحدث عن الله. إله المسلمين والإسلام لما احتاج لهذه التفاصيل التى تضلل القارىء وتعقد الرمز».

ثم يناقش مدعى ألوهية «الجبلاوى» فيتساءل.

إن كان «الجبلاوى» هو «الله» فى رمز «نجيب محفوظ»، فلماذا جعله والدا لخمسة أبناء؟ ولماذا يتزوج «رفاعة» ويقتل إن كان هو مسيح القرآن الذى «ماصلبوه وما قتلوه»؟

«نجيب محفوظ» لم يفعل أكثر من مبيّض حارتنا الذى رسم صورة «للجبلاوى» على حائط المقهى على: «مثال ما يرد من أوصافه فى الحكايات».. الحكايات الإسرائيلية بالطبع، فليس فى الإسلام حكايات ولا أوصاف لله يمكن أن ترسم بالفرشاة.

وقد يكون هذا تفسيرا مقبولا، للردّ على ادعاءات المدعين، فليس من شك فى أن المؤلف قد قرأ كثيرا حتى الإسرائيليات لابد وأن يكون قد قرأها فضلا – بطبيعة الحال عن قراءته للقرآن الكريم، فى تفاسيره المختلفة التى رأيت بنفسى بعضها فى غرفته التى يستقبل فيها ضيوفه – قرأ ذلك كله ليس كمراجع لأنه لم يكن يؤلف كتابا دينيا ولا كتابا تاريخيا. وإنما قرأها كمصادر لثقافته التى كان حريصا على تنميتها وتوسعتها فى مختلف المجالات. لكن مما لاشك فيه أنه عند قيامه بكتابة «الرواية» إنما استمدها مما أوحى به خياله، ورسم أحداثها واختار أشخاصها وأجرى ما أجرى من حوارات. كل ذلك استمده من ذات نفسه، ولم يرجع بشأنه إلى مرجع فهو كان بصدد عمل فنّى إبداعى، وليس عملا تاريخيا أو عملا دينيا، فلم يستوح إلا فيض إحساسه، ولم يرجع إلا إلى ما تنطوى عليه هواجسه وخيالاته، ومضى فى عمله مستلهما ذلك كله، وهادفا إلى تحقيق غاية أوغايات من عمله لم يكشف عنها، وإنما ترك ذلك كله لقرائه يرون فى عمله الإبداعى ما يرون.. أو مايرى كل منهم مستوحيا هو الآخر ذاته، قارئا انعكاسات ما قرأه على تلك الذات.. على أن يكون من المسلّمات أنه لا يمكن القول بأن كل الناس يحبون قراءة الروايات والقصص، وأنهم فى ذات الوقت يحسنون جميعهم – فهمها وتحديد مرماها.. فذلك أمر غير صحيح، لأن من يحبُّ هذا الفن ويؤثره على ما سواه من الفنون إنما هم قلّة بين الناس فضلا عن أن من يحسنون من بين أفراد هذه القله فهم الأمور على حقيقتها. والغوص مع المؤلف إلى حيث تمضى به شراعه هم أقل من القليل. ومن ثم فلا يجوز التعميم، أو إصدار الأحكام المطلقة..!

٤- وخلاصة رأى الكاتب:

إن درء الحدود بالشبهات قاعدة إسلامية يجب الالتزام بها.. ومن ثم يحق التساؤل: كيف غفل الذين أدانوا عن كل الشبهات التى تحيط بشخصية «الجبلاوى»، الرجل الذى يأكل وينام ويتزوج ويطلّق وينجب الأولاد ويشيخ ويموت؟

ثم نراه يقرر أنه عندما يرمز الفنان، فلا يجوز لنا أن نفتش عن قلبه أو نتهمه بما لم يقل أو يصرح، ولنتذكر دائما أن الفن الرمزى، هو كما يقال عن ماء زمزم: «هو لما شرب له».. أى علىحسب نية الشارب.. هكذا الفن الرمزى يوحى لك بما تريد أن تفهم.لذا يقال: إنه على عدة مستويات، وأن القارىء يشترك مع الكاتب فى تأليفه.

كما يضيف قوله: أنه لا يجوز أن يستمر الخلط بين حكايات التوراة، ومحكم التنزيل حتى ولو تشابهت الأسماء..

ويحدث الكاتب عن موقف المؤلف من رسول الله بالذات فيقول: ومرة أخرى فإن الالتزام بالحقيقة يحتم القول بأن «نجيب محفوظ» رأى ضرورة إضافة رمز دعوة الإسلام، ليستكمل الحقيقة من ناحية، ولكى لا يسقط فى النفى اليهودى للإسلام، ومن ناحية أخرى ليعطى لنفسه الفرصة فيعبِّر عن تفضيله لرسالة نبّى الإسلام، وقناعته بتفوقها على كل الرسالات، وأن الإسلام هو خاتم الأديان، ولاشك أن «قاسم» يرمز إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – ولعل أديبنا قد استخدم هذا الاسم عن عمد لكى لا يترك مجالا للتخمين، ولأنه فى حالة الإسلام، لا يملك حرية التعامل مع التاريخ، لأن تاريخ الإسلام ثابت ومحقّق و«محفوظ». وباستثناء ضرورات الرمز التى لا تسىء إلى المرموز إليه.. فإن القارىء يخرج فى النهاية بأن دعوة الإسلام كانت خاتمة وخير الدعوات، وأن حضارة الإسلام كانت أفضل ما مر بحارتنا.. وإذا كان «نجيب محفوظ» قد أوصل القارىء إلى هذه النتيجة عبر الرمز، فالعبرة بالنتائج.

وإذا كان المؤلف قد اختار اسم «قاسم» ليرمز به إلى «محمد عليه الصلاة والسلام» فليس معنى ذلك أنه كان يروى حياته عليه الصلاة والسلام، أو أنه كان يؤرخ لرسالته أو رسالات من سبقه من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وإنما هى رموز لمصلحين، تأثروا، واقتدوا وجاهدوا، ونذروا أنفسهم لخير البشرية فما هو براو لتاريخ، أو باحث فى الأديان، وإنما عارض لأصحاب المثل العليا محدث عنهم حديثا قصصيا روائيا شعبيا، وليس من شك فى أن كلا من قرائه له من رسوله الذى يتبع ديانته هاد ومرشد.. بل هو قدوته ومثله الأعلى وكذلك فإن إحساسه حيال الأديان الأخرى – طالما أنه صادق الإيمان – هو الاحترام والتقدير. فلكل رسول رسالته، ولكل مصلح غايته.. ومهمة المبدع أن يصور للناس ما يستثيره من أحداث، وأن يحدثهم عمن يثير فى نفسه الرغبة فى الحديث من الأشخاص،

دون أن يحاسب المؤلف فى هذه الحالة كما يحاسب المؤرخ أو الراوى لأخبار الدين: لم قلت؟ ولم تركت؟ ولم أضفت؟ ولم خالفت الأصل؟ ولم زدت هنا وأنقصت هناك، ولم لم ترو كل الوقائع؟ ولم تنسب إليه ما لم يحدث ولم تستنطقه وتجرى على لسانه مالم يقل؟.. فالجواب حاضر وهو أن المبدع هنا يخضع لعوامل فنه ودواعى إبداعه وما تمضى به الأحداث التى يرويها من نتائج.. ومن هنا نقول:

يجب أن تفهم الرواية على أنها عمل فنى إبداعى.

إذا احتوت الرواية على تشابه أو تقارب مع أحداث معروفة، فليس من الضرورى أن يمضى التشابه حتى غايته.. فالحدث التاريخى أمر خارج عن مجال الرواية، ومسار الأحداث، وغاية المؤلف..

• وأنه بذلك يعتدل الميزان..

ونقول للأستاذ «محمد جلال كشك»: عليك من الله سلام، ولك من كل منصف صادق الدعوات بالخير والغفران.

* * *

المبحث الخامس

«أولاد حارتنا بين الفن والدين»
للكاتب الكبير رجاء النقاش

١ - كلمة عن الكاتب:

رحمك الله يا «رجاء» بقدر ما قدمت للأدب بصفة عامة، وللنقد الأدبى بصفة خاصة، ولأدب «نجيب محفوظ» بصفة أخص من جهود كبيرة تتميز بالعمق والدقة والشمول فضلا عن تميزها بالوفاء والإخلاص والأمانة، وإكبار الوطن وأهله، وإعلاء شأن اللغة العربية بالذات، فى سلاسة ورقة وبما تميزت به كتاباتك من جمال العرض، وجمال التعبير، بحيث كانت تقع من القارئ موقع الرضا والتقدير وتصل إلى قلبه مباشرة، مخاطبة الوجدان، مثيرة لديه أعماق الشعور...

كتاب «رجاء» الذى نعرض له سبقته عدة كتب عن «نجيب محفوظ» كان من أهمها كتابان:

كتابه: «نجيب محفوظ»: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته – وقد صدرت طبعته الأولى عن مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٨م.

كتابه: فى حب «نجيب محفوظ» – وقد صدرت طبعته الأولى فى عام ٢٠٠٤م كما صدرت طبعته الثانية فى عام ٢٠٠٦م عن دار الشروق.

أما الكتاب الذى نحن بصدده فقد صدر فى عام ٢٠٠٨م عن دار الهلال فى سلسلة كتاب الهلال.

وإذا كان كتابه الذى بين أيدينا يدور كله حول روايته «أولاد حارتنا» – فقد تعرض فى الكتابين الآخرين لذات الرواية – تعرض لها فى الكتاب الأول، وكان كل ما ورد إنما نسب إلى «نجيب محفوظ» أى أنه قيل على لسانه، ورواية عنه.

أما الكتاب الثانى فقد تضمن فصلا كاملا عن الرواية كان عنوانه «ارفعوا أيديكم عن أولاد حارتنا». وقد تحدث فيه حديثا شيقا عن الموضوع.

وإذا كنا نستعرض بصفة أساسية فى حديثنا – ومرجعنا الأساسى ما تضمنه كتاب الهلال الذى نحن بصدده – فإننا سوف نعرج – بين الحين والآخر – على الكتابين الآخرين.

وقبل أن نمضى فى العرض نود أن نؤكد أن كتابات «رجاء النقاش» لا تعرف المجاملة أو المحاباة، وهى تتميز بالموضوعية الحقيقية والنظرة الصادقة والأمانة المطلقة.

وأود أن أؤكد أن هذا الذى ذكرته عن «رجاء النقاش» كان ثمرة لأمرين:

أولهما: قراءتى لكل – أو لمعظم – ما نشره من مقالات ومؤلفات قراءة معجب محب.

ثانيهما: تعاملى معه وعلاقتى الشخصية به التى أوقفتنى على رقة حاشيته، ومدى سماحة نفسه، وحبه للناس أجمعين.

• مرة أخرى نطلب له الرحمة وخير الجزاء.

٢ - النواحى التى تناولها «رجاء»:

كتاب «رجاء» عن رواية «أولاد حارتنا» عنونه كاتبه بأنه «بين الفن والدين» ولكن الواقع أن ما حدث للرواية بسبب الآراء المتطرفة التى قيلت حولها هو الذى استحوذ على الجانب الأكبر من دراسة «رجاء» إذ لم تحظ دراسته لها من الناحية الفنية بأكثر من عبارات تأتى ضمنا عند تناوله تحليل الرواية لتبرئتها مما نسبه إليها من يأخذون الأمور بظواهرها، دون أدنى دراسة، وحتى لو قاموا بالدراسة فإنها تأتى دراسة متحيزة ومتعجلة فى نفس الوقت، لا يهمّها قولة الحق بقدر ما يهمها نشر الاسم، ومشايعة جمهور المهاجمين ..!!

وعلى ذلك فقد اتجه «رجاء» فى مطلع دراسته إلى بيان أهمية الرواية، وما صحب ظهورها من اتهامات وبيان نتائج ذلك.

ويعرض «رجاء» بعد ذلك لمناقشة آراء بعض المعارضين مناقشة تفصيلية مع إشارة إلى آراء العلماء الذين أيدوا الرواية ونفوا عنها ما هو منسوب إليها.

ويتعرض – الكاتب – بعد ذلك لعقيدة المؤلف، وكيف أنها عقيدة صحيحة فيوضّح ذلك ويفصّله.. ويعرض لموقفه من «سلمان رشدى» مفسّرا ومؤصلا.

• ثم يزيد القول فيما يعنيه المؤلف بروايته وما ترمز إليه، وهل لها شبيه فى الأدب العربى.

ونظرا لأهمية هذه النواحى، ولأن هذه الدراسة هى الدراسة الشاملة الصادقة والمخلصة والتى تقوم على استهداف الحقِّ وبيان الحقيقة، ولا تعرف التحيز أو المجاملة، بل تحرص على مراعاة العدالة والإنصاف سواء فيما تقوم عليه من آراء شخصية أو ما تضمنته من مناقشة لأراء ومواقف الآخرين.. فلذلك كله فقد سمحنا لأنفسنا بأن نطيل فى العرض: وأن نتعرض لأهم ما تضمنته الدراسة من أراء ومناقشات.. مع إبداء تعليقنا، أو تعليقاتنا على مانعرض من صائب القول.

وإذا كنا بصدد دراسة ما تعرضت له الرواية من محاكمات توالت على أقلام الكتاب بمختلف اتجاهاتهم.. بما ساهمت كل دراسة فى إرساء «أسباب» الحكم النهائى.. فإننا نقرر – ومنذ الآن – أن دراسة «رجاء النقاش» سوف تساهم بقدر كبير فى الحكم الذى سوف نخلص إليه فى فصل الخطاب بما قدمت من أسباب قوية، وتحليلات دقيقة، وأراء منصفة – مرة أخرى نكرر الدعاء «لرجاء النقاش» بالمغفرة، وواسع الرحمة من لدن العزيز الكريم الغفار.

٣ - الرواية. وما اقترن به ظهورها من ظروف:

أ – يذكر الكاتب أن الرواية كانت هامة جدا فى أدب «نجيب محفوظ»، ويعود ذلك إلى أسباب يعدِّدها الكاتب على النحو التالى، «ص٦٨ وما بعدها من المرجع المذكور):

السبب الأول: «أن «نجيب محفوظ» قد كتبها بعد فترة انقطاع عن الكتابة الأدبية دامت خمس سنوات امتدت من سنة ١٩٥٢م إلى سنة ١٩٥٧م».

السبب الثانى: «لأهمية الرواية – فهى تمثل نوعا من التحول الكامل فى أدب «نجيب محفوظ»، فبعد أن كان النبع الأساسى لأدبه هو النبع الواقعى الاجتماعى الذى يعتمد على الوصف التحليلى للأحداث والشخصيات – انتقل «نجيب» إلى عالم روحانى ملىء بالشفافية والشاعرية والرمز والإيحاء، كل ذلك دون أن يغفل عقله وقلبه عن مشاكل المجتمع والمتاعب الواقعية التى تحاصر الإنسان فى حاضره ومستقبله، ولكن الواقع الاجتماعى تحوَّل بين يديه – بلغة العلوم الرياضية – من «كتلة» إلى «طاقة» ومن «مادة ثابتة» و«جامدة» إلى «انفجار» يشبه «الانفجار الذرِّى» وهو هنا انفجار أدبى ومعنوى، يهتم فيه «نجيب» بالاضطرابات النفسية والروحية الناشئة عن ظروف اجتماعية أو فكرية صعبة لا يملك الإنسان أمامها قدرة على التصرف، مما يقوده إلى

ذلك العالم الذى نطلق عليه أحيانا اسم «عالم اللامعقول»، وقد كان فى الاتجاه الجديد «لنجيب محفوظ» ابتداء من رواية «أولاد حارتنا» خير كثير إذ أنه أطلق موهبة «نجيب» إلى آفاق إنسانية واسعة وروحية».

والسبب الثالث: أو الأهمية الثانية لظهور الرواية وهى أهمية كبيرة فى الأدب العربى المعاصر، وفى حياة «نجيب محفوظ» أيضا، فهذه الرواية كانت السبب فى تعرض «نجيب» لمحاولة كادت تنجح لاغتياله فى مساء يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤م؛ فقد صدرت فتاوى تأثر بها بعض الشباب فكانت المحاولة التى كتب لها الفشل على النحو الذى سبق لنا تفصيله (فى المبحث الثانى من هذا الفصل).

ويخلص الكاتب إلى قوله:

• وننتهى من ذلك كله بالنتائج العامة الآتية (ص٧٦ – وما بعدها).

أولا: كانت رواية «أولاد حارتنا» رواية رائعة من الناحية الفنية، ولم يكن فيها لفظ واحد يمكن أن يتيح للذين أساءوا تفسيرها أن يجدوا دليلا قاطعا على صحة تفسيرهم السيىء.

ثانيا: كان الاتهام ضد الرواية قائما على تفسير نوايا الكاتب الخفية، ولم يكن قائما على النص الصريح الظاهر للرواية، لأن النص نفسه لا يتيح لأحد أن يأخذ التفسير السيىء إلى النوايا الخفية للكاتب وتأويل رموزه مما يضعف جبهة الاتهام.

ثالثا: إن الرواية بسبب قوتها وجمالها ودقة هندستها الفنية كانت تحتمل تفسيرات كثيرة متعددة لها حججها وبراهينها القوية ممّا يجعل هناك تعدّدا فى التفسير لهذه الرواية. والتعدّد القائم على أسباب قوية يجعل اتهام الرواية ضعيفا لأن القاعدة القانونية الحكيمة تقول: (ادرءوا الحدود بالشبهات) – وادرأوا معناها امنعوا، والحدود هى العقوبات فإذا كانت هنالك شبهات تجعل الاتهام غير قاطع وغير نهائى، فإن التشريع الحكيم يمنع العقوبة والإدانة..

رابعا: كان موقف الحكومة فى عهد «عبد الناصر» فى منتهى الحكمة والحزم، فهى لم تمنع نشر الرواية فى جريدة الأهرام، ولم توقف النشر عندما ظهرت الاعتراضات على الرواية، لأن هذه الاعتراضات لم يكن فيها من نص الرواية نفسها ما يدين الرواية بصورة قاطعة ونهائية. ولذلك لم تستجب الدولة لرأى من هذا النوع لا يملك حجة ثابتة.

خامسا: تصرفت الدولة بمنتهى الحكمة عندما نصحت «نجيب» بنشر الرواية فى كتاب خارج مصر، ورأت عدم نشر الكتاب فى مصر، لمنع إثارة عاصفة لابد من السيطرة عليها قبل أن تهب، وقد أخذ «نجيب» بهذه النصيحة وتقبّلها، دون إحساس بأى ضغط عليه، ولم تصدر الدولة أى قرار بمصادرة الرواية، واعتبرت أن الاتفاق بينها وبين «نجيب» على نشر الرواية خارج مصر هو بديل محترم لإصدار قرار بالمصادرة. وقد قامت (دار الآداب) فى بيروت بإصدار الرواية.. فى طبعاتها المتتالية.. ولم يصدر من الدولة قرار بمنع دخول الرواية المطبوعة فى بيروت إلى مصر.

* * *

وكما أوضح الكاتب فإن هذه الرواية التى يرى أنها كانت قوية وجميلة ودقيقة الهندسة، ومن ثم فإنها تقبل العديد من التفسيرات، ولكنه أضاف قولة حق، أن من نسبوا إلى الرواية ما نسبوا من اتهامات تتيح لهم الاعتراض على الرواية فإن اعتراضاتهم لم يكن لها من الرواية نفسها نص أو لفظ يساندها.. بل إن هؤلاء المعترضين عمدوا إلى التفتيش والبحث عن «نية» المؤلف أو عن قصده «الخفىّ ليقيموا عليه دليلهم – وقد قدمنا مما ذكره الشيخ «عبد الحميد كشك» والدكتور «المطعنى» أدلة على ذلك – فالرواية كما يقول كل منصف وكل قارىء يقرأ بعقله وقلبه وعينيه ليس فيها سوى بناء فنى جميل، يحتمل أكثر من دلالة، ويوحى بالعديد من الأفكار، ولكن ليس بين سطورها ما ينطوى على عدوان على الدين. أو مساس بالذات الإلهية.. بل إن الرواية كانت بمثابة انفجار أدبى، إذ كان لها المعجبون بها، والمتأثرون بها، لأنها فتحت آفاقا جديدة وأضاءت فى عالم الأدب والفن إضاءات عديدة، وكانت بداية «لنجيب محفوظ» نفسه فى سبيل التطور الطبيعى له فى منهاجه، ومساره، وتفكيره.

* * *

٤ - دراسة «رجاء» لرأى المرحوم الشيخ «محمد الغزالى»:

وكان حرص «رجاء» على الحياد والموضوعية فى دراسته حرصا كبيرا، ومن ثم فإذا انتهى إلى رأى فيمكننا أن نقرر أنه لم ينته إليه إلا بعد دراسة متأنية ليس للنص وحده

وإنمـا لكل ما قيل حوله مـن آراء معارضة وتذهب فى معارضتها إلى أقصى المدى ومن آراء مؤيدة لا ترى فى العمل إلا ثمرة فن مبدع.

ومن مظاهر اهتمامه بمختلف الآراء دراسـته لما تردد عن أراء للمرحوم الشـيخ الجليل «محمد الغزالى».. فماذا نقل عنه؟ وبم عقب على رأيه؟ وما هى كلمتنا بشأن ما قاله الشيخ وما رد به «نجيب» عليه..؟

ما ذكره «رجاء» عن الشيخ «الغزالى» ورد فى موضعين، ويبدو أن كلا منهما كتب ونشر فى وقت مختلف عن الآخر:

أما عن الرأى الذى ورد أولا.. فقد أشار إليه – ص ٩٨ وما بعدها – بقوله:

الشـيخ «محمد الغزالى» قال فى حوار مع الأديب الروائى الكبير «يوسف القعيد»: «نعم أنا ضد «أولاد حارتنا» لأنى أرى أنها رواية تؤرخ للبشرية وللأنبياء الذين أرسلوا إلى البشر كافـة».. هذا هو رأى الشـيخ «الغزالى» فى الرواية، ولكن هـذا الرأى لم يرتبط بالتكفير أو إهـدار الدم أو الدعوة إلى قتـل «نجيب محفوظ»، إنه رأى يمكن مناقشـته، والردّ عليه، لأنـه لا يخرج عن حدود الموضـوع إلى حدود المحاكمات، وإصدار الأحكام على الناس فى غيابهم ودون الاسـتماع إلى دفاعهم، ثم العمل علـى تنفيذ هذه الأحكام الدموية بيد الذين أصدروها من دون أن يكون لهم حق لا فى إصدار الأحكام ولا فى تنفيذها.. ما قاله الشيخ «الغزالى» هو رأى لم ينحرف صاحبه إلى التجريح والتكفير. وقد قال هذا العالم الدينى الكبير أنه ضد الرواية ومن حقّه أن يقول ذلك، وعندما قيل للشـيخ «الغزالى» أن «الشـيخ كشك» والشيخ «عمر عبد الرحمن» أهدروا دم «نجيب محفوظ» قال: إن «الشيخ كشك» جاهل أما «عمر عبد الرحمن» فإنسـان مريض. وهذا معناه أن الشيخ «الغزالى» كان يرفض تماما تكفير «نجيب محفوظ» ويرفض الاعتداء عليه.

أمـا عـن الرأى الذى ورد فـى الموضع الثانى: فقـد ورد (ص ١٤٥ وما بعدها) على النحو التالى:

توقفت طويلا أمام شـهادة قدمها الأديب المعروف الأستاذ «سليمان فياض» ونشرها فى جريدة الأهالى المصرية بتاريخ ٢٣ نوفمبر سـنة ١٩٩٤م – وهذه الشـهادة بالغة الأهمية، ولا يوجد ما يدعونا إلى الشك فى صدقها، وإن كانت فى النهاية لا تخرج عن كونها شهادة أديب، وأنها من المذكرات الشـخصية، وهى خالية من تقديم وثيقة تدل على ما جاء فى

هذه الشـهادة، ولو أن هذه الوثيقة لم تفلت من يد الأديب «سـليمان فياض»، لكانت هى الدليـل على أن المؤسسـات الدينية فى مصر عارضت الروايـة واعترضت عليها. على أن المؤسسـة الدينية فى شـهادة «سـليمان فياض» لم تكن هى مؤسسة الأزهر، بل كانت هذه المرة: وزارة الأوقاف..

يقـول «سـليمان فياض» فى شـهادته التى أراهـا مهمة جدا: (قـدِّر لى – فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات أن أعمل لفترة من الوقت فى وزارة الأوقاف وكنت سكرتيرا للجنة الدفاع عن الإسـلام مع الشـيخ «السيد سابق».. والشـيخ «محمد الغزالى» – ويقول «سـليمان فياض»: «لقد تبدَّى لى الوجه القاسـى للشـيخين الجليلـين... وراء وجهيهما البشوشـين الناعمـين. هذا الوجه القاسـى الذى ظهـر لى واضحا من خـلال موقفهما من «نجيب محفوظ» وروايته «أولاد حارتنا» وكان الشـيخان مسـئولان معا عن إدارة المساجد والدعـوة والدعاة، وقد ابتكرا لجنة الدفاع عن الإسـلام، والمفروض أن هذا الدفاع كان ضد افتراءات بعض المستشرقين والرّد عليها، ولكن هذا الدفاع امتد أيضا، ولأول مرة على أيدى الشـيخين.. ضد مسلم يشهد الشهادتين – وتهمته عندهما أنه كتب رواية يحار النقاد فى تفسيرها فنيا، وهى ليست عملا مباشرا يثير شبهات الفقهاء. حدث ذلك فى غرفة أنيقة، حـول منضدة حديثة، ومقاعد مريحة حيث اجتمعت لجنة الدفاع عن الإسـلام وتصدرّها الشيخ «السيد سابق» كرئيس وأمين لهذه اللجنة، وكان الشيخ «الغزالى» عضوا فى اللجنة، ودارت مناقشـة حول أ«ولاد حارتنا» وكانت هذه المناقشة أشبه عندى بكابوس ثقيل وكان الشـيخ «الغزالى» فى هذه المناقشـة يؤكد، ويقسـم، وكان الشيخ «سـابق» يؤيد ويحرّض، وأخيرا أخذ منى الشـيخ «الغزالى» الأوراق البيضاء، ولم يدوِّن بدلا منى محضرا للجلسـة، لكنه قدّم فى النهاية ورقتين يسـتعرض فيهما «أولاد حارتنا» من زاوية الاتهام وحدها ولا يتيح للرواية أى دفاع عنها، وأكثر الحاضرين من أعضاء لجنة الدفاع عن الإسلام لم يقرأو الرواية وإن قرأوها فإنهم لم يتوقفوا عندما قرأوها – ثم يقول «سـليمان فياض» بعد ذلك: فى الورقتين اللتين كتبهما الشـيخ «الغـزالى» كانت الإدانة لرواية «أولاد حارتنا» فى غيبة عن الدفاع والمتهم – ولم يكن من حقّى، ولا من عملى كسكرتير للجنة الدفاع عن الإسلام، أن أمثّل دور الدفاع عن «نجيب محفوظ» و«أولاد حارتنا». ولسـت بالأحمق الذى يسـعى إلى تهييج الأسـد فى عرينه، وهو الخصم والحكم. وأخذ الشـيخ «السـيد سابق» الورقتين

اللتين كتبهما الشيخ «الغزالى» ودفع بهما بعد انفضاض الجلسة التاريخية إلى سكرتيرته فكتبتهما على الآلة الكاتبة، ونجحت أنا فى إقناعها بزيادة نسختين للاحتفاظ بهما فى ملف اللجنة إلى وقت الحاجة إليهما، وقد احتفظت بهاتين النسختين لنفسى، وقد حدث ذلك فى يوم خميس وكنت أيامها من رواد مقهى ريسن لحضور ندوة «نجيب محفوظ» الأسبوعية، وذهبت مبكرا فى الندوة لأنفرد بضع دقائق «بنجيب محفوظ»، وأعطيت «نجيب» الورقتين، وكانت كافية لإقناعه بصحة هاتين الورقتين وإحجامه عن السؤال، ولعل صدمة المفاجأة قد أخذته، وأذكر وجهه يومها وقد أصبح شديد الشحوب فى الضوء الساطع على رصيف المقهى وهكذا حسب رواية «سليمان فياض» ذهبت النسخة الأولى من مذكرة الشيخ «الغزالى» إلى «نجيب محفوظ» نفسه، فأين ذهبت النسخة الثانية؟

ويعقب رجاء على هذه الرواية بقوله: تلك هى الشهادة التى أدلى بها «سليمان فياض» عندما كان سكرتيرا للجنة الدفاع عن الإسلام – وحسبما جاء فى شهادته فإنه قد ترك العمل فى لجنة «وزارة الأوقاف» بعد الجلسة التى أدين فيها «نجيب محفوظ»، لأنه لم يجد فى نفسه – وهو الأديب الفنان – القدرة على مواصلة العمل مع لجنة تنظر إلى الأدب نظرة سلبية، وتدين الأدباء إدانات قاسية من دون أن تدخل معهم فى حوار ومن دون أن تعطيهم فرصة للدفاع عن أنفسهم. هذه الشهادة تدل على أن «فتوى» اتهام ضد «نجيب محفوظ» صدرت عن وزارة الأوقاف بتوقيع رجال محترمين ولهم مكانتهم العالية وتأثيرهم فى الناس..

على أن لنا ألاّ نسلم برواية الأستاذ «فياض».. إذ أنه لم يقدم دليلا عليها.. فلو أنه قدم صورة مما كتبه الشيخ «الغزالى» كان فى ذلك ما يساند رأيه أو قوله.. والأهم من هذا أن الأستاذ «فياض» لم يذكر ملخصا لمضمون ما يذكر أن الأستاذ «الغزالى» قد كتبه وكان كل ما ذكره الأستاذ «فياض» أنه كان رأيا ضد الرواية، لكن لا يمكن أن نتصور أن كل ما تضمنته الصفحتان هو ذلك، إذ أن تلك هى النتيجة التى انتهى إليها الشيخ الفاضل مما أورده من أقوال وأسباب على صفحتين كاملتين.

* * *

ويمكـــن لنا أن نضيف كمثال على ذلك من الأدب الحديـــث، ذلك الفصل الذى تضمنه كتاب «توفيق الحكيم»: حمارى قال لى.. والفصل نشر فى عام ١٩٤٥م وعنوانه: «حمارى والجنة والنار» وقد اســتهلـه بســؤال حماره له: عن مصيره بعد الموت. فأجابه: «من باب التواضـــع، أقول لك فـــى النار» وقد طلب إليه حماره اختراق الحجب وتصور ما فى الجنة والنـــار.. فطـــار به الخيـــال أول الأمر إلى الجنة ليلقى الكاتب «أحمـــد الصاوى محمد» فى الجنـــة يغـــازل الحور العين.. ثم يطلب إلى «رضوان» الإذن له بأن يصدر مجلة فى الجنة.. وبعـــد حصولـــه على موافقته يحصل على إذن آخر بزيارة النار لمدة نصف ســـاعة للحصول على أحاديث من كبار كتاب مصر حيث علم أنهم جميعا فى النار.. فتعجب كيف دخلوها رغم أن لهم كتبا وأبحاثا عميقة عن الإســـلام وعن نبى الإسلام.. وعندما حصل على الإذن وانتقل إلى النار لقى فيها عميد الأدب العربى والحاج «هيكل»، و«العقاد» و«توفيق الحكيم» ويحاول أن يحادثهم ويناقشـــهم.. وكيف أنه دخل الجنة وليس له كتاب يســـتحق بسببه دخولها سوى كتابه عن «باريس» واستغرق النقاش والتجوال وقتا، وعندما أراد العودة وجد بابها مغلقا دونه فقد استنفد المدة «المصرح» له بها.. ومن هنا نجد أن «الحكيم» سمح لنفسه أن يتحدث عن الجنة والنار حديث أهل الأرض الفانين، وأن يجعل الحياة فيها كالحياة فى الدنيا.. فيها غزل، وفيها مجلات، وفيها موازين مقلوبة: فمن يجعل همه دراسة الدين وعرض ســـيرة النبى ﷺ يكون مصيره النار – وبئس المصير – يصلى لظاها، ويعيش شـــقيا فيهـــا.. ومـــن كان إنتاجه كتابا عن «باريس» يكون مصـــيره «الجنة».. يفعل فيها ما يفعله فى حياته الدنيا.. أليس فى هذا خروج عن الأصول الدينية، والنواميس العقائدية.. وكيف يقـــول ما قاله صراحة وعلى نحو مباشـــر، وليس فيه رمـــز ولا تورية؟ أليس فى هذا خروج قـــد يصـــل إلى حد الكفر ومن ثم يوجب الاســـتتابة؟.. نقول إن المعيار واحد وهو أننا نقيس الكتاب على أساس حقيقة نسبه، ونحن هنا حيال كتاب ينتسب إلى الفن والفكر والإبداع، ومن ثم يكون معياره مستمدا من معايير ذلك الفن.. لا من معايير الدين والعقائد والتاريخ.. طالما أنه من الثابت أن ما قاله لا يمس العقيدة، ولا ينال من الدين.. والله ولىّ التوفيق.

* * *

المبحث السادس

نجيب محفوظ الرمز والقيمة

للدكتور «جابر عصفور»

١ - الكاتـــــب:

لم يكتف الدكتور «جابر عصفور» بمنصبه: أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة الذى يساهم بقدر كبير فى إنماء الأدب العربى، بما يلقى من محاضرات، وبما يقوم به من دراسات، وبما يتولاه من إشراف على طلبة الدراسات العليا الذين يعملون من بعد فى البحث فى هذا المجال.. بل حرص على أن يصل بأفكاره وآرائه وتحليلاته العلمية والأدبية إلى القارىء العادى البعيد عن الجامعة والذى لا علاقة له بأساتذتها ودراساتها... فمقالاته تملأ الصحف والمجلات، حيث إنه ينشر العديد من المقالات والأبحاث التى تتناول ما هو جار من أمور وما هو مطروح من موضوعات.. وقد تختلف معه، ولكنك ولابد أن تحترمه، لما تقوم عليه كتابته من احترام للذات وللقارىء وللحقيقة فى وقت واحد.

وهو وإن كانت المناصب التى شغلها فى الجامعة بدءا من أستاذ النقد العربى إلى رئيس لقسم اللغة العربية – فقد شغل مناصب جامعية عديدة خارج مصر سواء فى الكويت أو فى الولايات المتحدة الأمريكية.. كما شغل مناصب هامة فى مصر منها رئاسته للمجلس الأعلى للثقافة ثم للمركز القومى للترجمة.. ثم تولى وزارة الثقافة لفترة قصيرة استقال بعدها.

وهو وإن كان كتب دراسات ومقالات عديدة عن «نجيب محفوظ»، إلا أنه يهمنا منها كتابه الأخير «نجيب محفوظ – الرمز والقيمة – وهو الكتاب الذى قامت الجمهورية الليبية بنشرة على أثر منحه «جائزة القذافى العالمية للآداب» ويخيل إلينا أنه قد جمع فى هذا الكتاب كل ماسبق له أن نشره من دراسات عن «نجيب محفوظ».

والكتاب وإن كان يتناول دراسة أدب «نجيب محفوظ» من نواحيه المختلفة إلا أنه – مع ذلك – قد خص «أولاد حارتنا» بأكثر من فصل فى مؤلفه تناول فيه الرواية وظروف كتابتها ونشرها، ثم ما تعرضت له من بعد من هجوم، مع بيان لأرائه فى كل هذه التطورات.

٢ - تقدير الكاتب لظروف كتابه ونشر الرواية:

يشير الكاتب إلى الفترة التى انصرف فيها «نجيب محفوظ» عن الكتابة وهى التى اقترنت بأمرين: أولهما إنجازه للثلاثية، وما شعر به من حاجة إلى الراحة بعد أن قضى فى كتابتها سنوات أربعا - وإلى قيام ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢م فى ذلك الوقت وما اعتبر معه كثيرون من الكتاب - وهو الآن وزير للثقافة فى وزارة المهندس «إبراهيم محلب» - أن الثورة قد حققت كل ما كانوا ينادون به.. غير أنه بعد فترة ما لبث أن أحسَّ بدبيب الرغبة فى الكتابة تعاوده، فكانت سعادته لا تقدر - كما سبق أن ذكرنا ذلك بالتفصيل فى موضع سابق - ومن ثم فقد بدأ يتنبه ويسارع إلى معاودة إمساك القلم - وبخاصة ليجيب على الأسئلة التى ابتدأت تراوده..

• وفى هذا يذكر الكاتب قوله: (٢٩٢ وما بعدها):

«عاودته الأسئلة المؤرقة سنة ١٩٥٧م؛ وبدأ يتنبه إلى أن هناك شروط ضرورة جديدة آخذه فى التراكم وفرض الانتباه على النفس. وكان لابد من الاستجابة إلى دوافع الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها، خصوصا أنها لم تكن فى جدية أسئلة الماضى واتجاهها الأحادى وإنما كانت أسئلة مركبة متعددة الأوجه والمستويات، تصل الفيزيقى بالميتافيزيقى، والنقد السياسى الاجتماعى بنقد الخطاب الدينى الذى يصاحبه ويوازيه. ويبدو أن قراءة التراث السردى الذى يتحدث بلغة المجاز والكناية، مثل (كليلة ودمنة) و(ألف ليلة)؛ و(رسائل حىّ بن يقظان) و(الغربة الغربية) وما يشبهها فى التراث الفارسى الذى عرفه «محفوظ» فى أمثال (منطق الطير) «لفريد الدين العطار» - دفعه إلى الإفادة من تقنياته المراوغة فى ازدواج دلالاتها، وحكاياته الإطارية التى تجمع الكون كله بين دفتيها، هكذا تولدت «أولاد حارتنا» علامة على زمن جديد فى الكتابة، وزمن أحدّ فى الواقع الأكثر تعقيدا الذى توازيه الرواية رمزيا ساعية إلى أسره فى شباك المجازات والكنايات التى تعطى الكثير من المعانى بأقل القليل من اللفظ وكانت بداية السرد ونهايته على لسان أول من عرف الكتابة فى الحارة المجازية التى تحولت إلى فضاء، رمزى للإنسانية كلها يرويها قلم كاتب احترف كتابة شكاوى المظلومين وأسئلتهم الحائرة من أول الخلق إلى نهاية الكتابة، وكانت نقطة التركيز فى كل الأحوال على الظلم الذى يعانيه أولاد الحارة من نظار الحارة وفتواتها وهو الظلم القديم قدم البشرية الذى كان يواجهه ويقضى عليه - إلى حين - مبعوث يهبط إلى

الحارة أو يدخلها كالخلاص والأمل متصديا لشـروط الضرورة كلها، لفترة تطول أو تقصر، فتمتلـىء الأرض عـدلا بعد أن ملئت جورا إلى أن يصـل الزمن إلى الوقت الذى يتوقف فيه المبعوثون ليصبح تحقيق آفاق الحرية والعدل منوطا بالبشـر الذين يسـتعينون بسـحر العلم والعرفان الذى يريهم مشرق النور والعجائب من ناحية، وينقذهم نهائيا من العسف والقمع والظلم ليعيشـوا ما يشبه اليوتوبيا التى لامكان فيها لشروط الضرورة، ولا تخلو من الميراث الروحى الذى تراكم بتعاقب المبعوثين».

٣ - نشر الرواية.. والهجوم عليها وعوْد لتقرير الأزهر:

وقد نشرت الرواية بالفعل – كما ذكرنا من قبل – مسلسلة فى جريدة الأهرام، فأثارت بعض الاعتراضات والمناقشات على النحو الذى سبق لنا عرضه.. وكذلك فقد أصدر مجمع البحوث الإسلامية عدة فتاوى لم يتزحزح عنها وخلاصتها أن الرواية وإن كانت «عملا فنيا ممتازا» إلا أنها تحدثت عن الذات الإلهية وعن رسـل الله وأنبيائه بما لا يحق ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى الذات المقدسة ما نسبه «نجيب محفوظ» إليها.. وكان ذلك كله – كما ذكرنا من قبل – علاوة على ما تناقلوه من تفسـير لأسماء الرواية بما يطابق الذات الإلهية وأصحاب الرسـالات الثلاث.. وهو ولا شـك تفسـير خاطئ، على النحو الذى فصلناه فى أكثر من موضع.

• ويضيف الكاتب قوله: (ص ٢٩٦).

«ويبدو أن هذا الرأى هو ما ثبت عليه مجمع البحوث حتى بعد أن حصل «نجيب محفوظ» على جائزة نوبل التى أعلنت فى الثالث عشـر من أكتوبر سنة ١٩٨٨م – وأعقب الإعلان احتفـال الدولة بالمؤلـف وتكريم الرئيس لـه بمنحه (قلادة النيـل) – أرفع الأوسمة فى الدولة – واسـتغل المثقفون المناسـبة – وكنت أحدهم – وطلبوا من الرئيس مبارك الإفراج عن الرواية والسماح بنشرها، الأمر الذى أدّى – فيما يبدو – إلى إعادة عرضها على مجمع البحوث الإسلامية الذى ازداد تشدّدا مع تصاعد ضغط جماعات الإسلام السياسى، وكانت النتيجـة أن جدَّد أمينه العام قراره بالرفض فى تقريـره المكتوب فى ١٩٨٨/٢/١م (والذى سـبق لنـا أن أوردنا نصه فى المبحث الأول من هذا الفصـل).. وهو التقرير الذى يرى فى الرواية قصة رمزية واضحة الرمز تشير إلى قصة الحياة والبشر، إلا أنها مع وضوح ردودها تحتوى على خلط شـديد، ولا تنتظم على سـياق تاريخى أو خط رمزى مسـتقيم. ولقد قرر

مجمع البحوث الإسلامية تجديد حظر تداول الرواية أو نشرها مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وكذلك حظر دخولها بناء على هذا التقرير، وعلى تقارير الأجهزة الرقابية الأخرى»

• ويعلق الكاتب على هذا التقرير بقوله (ص ٢٩٧):

ويتضح من التقرير أمور ثلاثة:

أولها: الإصرار على تكفير الرواية تأكيدا للرأى نفسه الذى صيغت تقاريره منذ حوالى عشرين عاما.

وثانيها: استهزاء التقرير بالنقاد أمثالنا الذين دافعوا عن الرواية، ورأوا فيها – ولا يزالوان – (فنا رفيعا).

وثالثها: «أن تقرير مجمع البحوث لم يكن هو التقرير الوحيد الذى ترتب عليه طلب المثقفين من رئيس الجمهورية إطلاق سراح الرواية: فمن المؤكد أن تقرير مجمع البحوث الإسلامية جاء مصدقا لما أوردته تقارير أخرى من جهات أمنية وغير أمنية، وأحسب أن هذه الأمور الثلاثة تكشف عن استمرار أسباب منع الرواية، وتجذرها من الناحية الرسمية وجنوحه المتزايد إلى التشدد»

والواقع أن الرواية قد نشرت فى مصر فعلا عقب وفاة المؤلف.. وطبعت معها – وضمن مجلدها – كلمتان:

أولاهما: هذه الشهادة.. حول «أولاد حارتنا» – بقلم الدكتور «أحمد كمال أبو المجد».

وثانيهما: بعنوان هذه الرواية بقلم د. «محمد سليم العوّا» – الأمين العام للاتحاد العالمى لعلماء المسلمين. وكلتا الكلمتين تشيد بالرواية من ناحية، وتنفى عنها التفسير الدينى من ناحية أخرى، وسنعرض للكلمتين فى مواضع تالية من حيث المضمون.. وبذلك ظهرت الرواية فى مصر وجرى توزيعها، بل وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ربما تجاوزت الثمانى طبعات وكانت «دار الشروق» هى التى قامت بهذه المهمة فى أول إصدار لمؤلفات «نجيب محفوظ» الكاملة وفى طبعة أنيقة وعلى مستوى رفيع فى الطباعة.. ونستطيع أن نقرر أنه بالإقدام على هذه الخطوة خفتت أصوات اللائمين، وقلّت أو انعدمت مقالات من ينسبون إلى الرواية مفهوما دينيا.. بل وربما نسى كثيرون ما كان قد ثار بشأن الرواية من معارك.

• ويضيف الكاتب قوله (ص٣٤٣):

«ولم يعرف هؤلاء الذين وصل بهم التعصب إلى درجة التكفير، ولعلهم تجاهلوا عامدين تقاليد تراثهم الأدبى التى تمايز بين الحقيقة والخيال، ولا تطابق بينهما مهما بلغت درجة المقارنة التمثيلية، واستبدلوا تقاليد التعصب بالتسامح فى تراثهم الدينى الذى ذهب أقطابه إلى أنه لو صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه والإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان ولم يُحمل على الكفر. وتعمَّد هؤلاء – فى الوقت نفسه – تجاهل بقية أعمال «نجيب محفوظ»، ناهيك عن بقية الأعمال الأربعة التى أشارت إليها حيثيات نوبل فلم يزنوا «أولاد حارتنا» بعشرات غيرها من الأعمال التى لا يمكن لأى منصف تجاهل الجانب الروحى الإسلامى فيها. ومنهم د. «محمد حسن عبد الله» – الذى بدأ يكتب عن الإسلامية والروحية فى «أولاد حارتنا» مستهلا تفسيره السمح المغاير لأدب «نجيب محفوظ» كله – وكانت النتيجة كتابه الذى حمل العنوان نفسه، قاصدا به أن يقوم تفسيرا إسلاميا روحيا فى مقابل التفسيرات الضيقة من أهل اليمين أو أهل اليسار. ومنهم الإسرائيلى «ساصون صوميخ» فى كتابه المكتوب بالإنجليزية عن أدب «محفوظ» بعنوان (الإيقاع المتغير) الذى نشرته دار بريل – ليدن الشهيرة..»

والكاتب هنا إنما ينفذ إلى قلب الإسلام، فليس فى الإسلام تشدّد، وليس فيه إساءة تفسير، وليس فيه تصيّد لكلمات من هنا، وأخرى من هناك، وليس فيه شقٌّ للصدور، وتفتيش فيما بين طوايا المرء وحنايا قلبه.. وصدق الله العظيم إذ يأمرنا ويدعونا بهذه الكلمات المعجزات التى جمعتها آية واحدة، أو جزت، فأعجزت فى قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ صدق الله العظيم [سورة الأعراف الآية: ١٩٩].

٤ - عن كتب تكفير الرواية والمؤلف:

اهتم الكاتب بهذا التيار الذى انطلق مؤصلا لفكر التكفير، وباثا دعوته بين جموع الشباب مقررا أن الكتاب المستنيرين استهانوا بهذا التيار، ولم يدركوا خطورته حتى نما وتجبَّر، ثم يعرض بعد ذلك لكتابين رئيسيين – سبق لنا أن عرضنا لكل منهما بالتفصيل فى مبحث مستقل – ولكننا نعاود هنا عرض وجهة نظر الكاتب مع تحاشى تكرار ما سبق ذكره.

أ- عن التيار المتشدد:

• فهو يعرض لهذا التيار بقوله: (ص٣٦٠ وما بعدها):

«إننـا لا نعرف عن حركات أو تيارات التطـرف الدينى إلا القليل.. نحن لا ندرك حجم الثقافة المعادية للاسـتنارة، فنحن لا ندرك إلا ما نريد أن ندركه فيما يبدو – لاشـعوريا على الأقـل – ولا نتوقـف إلا على ما نتوقع أن نلقاه سـلفا.. والنتيجة هى أننا نفاجأ بما يحدث فى أغلب الأحيان، سـواء من حيث انتهاك ما تعودنا عليه من قيم ثقافية ومبادىء إبداعية وميراث فكرى وعقلانى يتسم بالتسامح والمجادلة بالتى هى أحسن ولأننا نجهل هذا التراث ولا نعمل على تواصله، أو تنشيطه فى الذاكرة الثقافية للجمعية، فنحن لا نملك رؤية مستقبلية نابعة من معرفة عميقة بكل ميراث الماضى الخلاّق وتيارات الحاضر المتغير، والإمكانات التى تنطـوى عليها العلاقة بينهما.. وقد قادتنى هذه الملاحظة إلى أهمية الاهتمام الحقيقى والجادّ بدراسـة الفكر المتطرف المعادى للاسـتنارة من ناحية، والمضاد للتقـدم والحوار مع الآخر أو الاعتراف به من ناحية موازية، والبحث عن جذوره وأصوله من ناحية أخيرة..».

«وهـا أنذا أدرك مؤخـرا أن عملية اغتيال «نجيب محفوظ» كانـت حتمية؛ وأننا كان يمكن أن نهجس بذلك لو قرأنا العلامات والإنذارات السـابقة ابتداء من عشـرات الأعمال الإرهابية التى لم تكفّ عن التزايد منذ السبعينيات ولم تتوقف إلى اليوم، ولا أظنها سوف تتوقف فى المستقبل القريب أو المنظور، وأحسب أننا لو كنا تعمقنا دلالة اغتيال «فرج فودة» فى يونيه ١٩٩٢م وغصنا فى دراسـة السـياقات التى أدّت إلى عمليـة الاغتيال وأحاطت بها والكتابات التى سـبقتها ومهّدت لها وأعقبتها فى الإشـارة إلى ضحايا محتملة لأدركنا أن الـدور على «نجيـب محفوظ» لابد آت، وعلاماته مئات المقالات العدائية. وعشـرات الفتاوى التكفيرية على امتداد الوطن العربى. فقد انتشرت هذه الجماعة بما أدى إلى زيادة نزعات المحافظة فى المجتمع وسـرعة انقلابها إلى نوبات تطرّف تميل إلى ممارسة العنف بعيـدا عن قيم التسـامح أو التحديث، هكذا غاب علماء دين مـن أمثال: «محمد عبده»، و«محمد فريد وجدى» والشـيخ «شـلتوت»، وحلّ محلهم علماء من نوع آخر أقرب إلى سوء الظـن، وأسـرع إلى التكفير، وقـارن بين موقف هؤلاء – فى الأيام التى نعيشـها وما فعله «محمد فريد وجدى» الذى كان رئيس تحرير مجلة الأزهر ومديرها عندما قرأ الدراسة التى نشـرها «إسماعيل أدهم» فى مجلـة (الإمام) بعنوان: (لماذا أنا ملحـد؟) لقد قرأ «وجدى»

الدراسة، ولم يقبلها بالطبع، فأخذ فى تفنيدها تحت عنوان: (لماذا أنا مسلم) والردّ علىحجمها بما هو أقوى منها، مجسدا معنى المجادلة بالتى هى أحسن ما دمنا نعتقد أننا على الحقّ، ومعنى التسامح الذى هو من نفحات الإسلام الذى ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله فيما نقول، وذلك بسبب الحرية العقلية التى كانت مبدأ لهم فى حوار السنّى والمعتزلى والشيعى والدهرى؟ فلم يزد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس، وعظمة فى القلوب، وكرامة فى التاريخ، وللأسف لم يعد هناك أمثال «محمد فريد وجدى» أو «محمد عبده».. وحلّ محلهم.. أولئك الذين ما أسرع مبادرتهم إلى إصدار فتاوى التكفير، وأحكام الردّه التى تعنى – فى النهاية – القتل الذى يقوم به الأتباع – أقصد أولئك الذين أسلموا عقولهم لأمراء التكفير ودانوا لهم بالسمع والطاعة، ومن ثم ترجمة كلمات الفتوى إلى طلقات رصاص وطعنات خناجر»..

ثم يمضى قائلا (ص٣٠٤) وأعترف للمرة الثانية بأننى لم أعرف أن هذه الكتب التى تتولى تكفير «نجيب محفوظ» صاحب «أولاد حارتنا» – قد كتبت وطبعت وانتشرت بين المتعاطفين مع فكر أصحابها ليس فى مصر فحسب، وإنما فى غيرها من الأقطار التى آتى فيها فكر التكفير ثماره المرة.».

وهذا الذى يذكره الكاتب أمر محيِّر.. فالمفروض فى رجال الدين ومن يتحدثون بإسم الإسلام أنهم قد أدركوا أساسيات الإسلام وأحاطوا بمنهاجه، وعرفوا لبّ عقيدته، وأنه دين يقوم على السماحة والتى تسير، على قاعدة أن الرسول عليه السلام ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، كما أنه لايقوم على إساءة الظن بسائر المسلمين، واتهامهم – بغير دليل – بالخروج على الدين. دين يدعوا إلى الخير ويسعى إلى العدل، ويحفظ على الإنسان حياته، ويحفظ له كرامته.. مثل هذا الدين المفروض ألا يعرف التطرف، ولا التشدد، ولا الانحراف.. ولكن للأسف ازدادت حدّة التطرف بين بعض طوائفه ممن يسمون أنفسهم «مسلمين».. ولا أدرى كيف يحتفظ من يبيح دم الآخرين بغير حق بصفة المسلم؟ وكيف يعتبر نفسه داخلا فى حظيرة الإيمان.. ؟

* * *

ب - مع كتابين من كتب التكفير:

عـرض الكاتـب لكتاب الشـيخ «عبـد الحميد كشـك» – كلمتنا فى الـرد على رواية «أولاد حارتنـا» – وقد سـبق لنا أن عرضنا لهذا الكتاب بالتفصيـل فى المبحث الأول من هذا الفصل – ومن هنا فسـوف نكتنفى بما أبداه «الكاتب» من آراء خاصة به بشـأن هذا الكتـاب – هـذا والكاتب يبدأ حديثـه بقوله (ص٣٦٧) – بأنه يعتقد «أن كتاب الشـيخ «عبد الحميـد كشـك» يمكن أن يغنى عن غيره فى التمثيـل على خطاب الكتب المؤلفة ضد رواية «أولاد حارتنا» ثم يذكر بعد ذلك – ص ٣٧٠ – أنه قد استطاع أن يحدد الخصائص المائزة للخطاب الدينى الأصولى للكتاب على النحو التالى:

أولا: يتحدث الخطاب عن موضوعه – الرواية – ليس بوصفها عملا تخيليا رمزيا يوازى التاريـخ ولا يطابقـه، وتنفصل مجاراته عـن حقائقه مهما كانت درجـة القرب بين لازمها وملزمها إذا اسـتخدمنا لغة البلاغة ولا يتخذ طرفا تشـبيهاتها فيصبح المشبه عين المشبه به، فالتشـبيه يفيد الغيرية لا العينية، خصوصا أن قرائن الرموز تحرص على إضفاء لوازم البشـر الفانـين عليهـا، بعدا بها عـن أصلها المرموز إليه من ناحية، وتأكيـدا أن هذا غير ذلك وإن شابه فى هذه الصفة أو تلك، فالهدف هو جوهر الدلالة، وليس سطح التفاصيل المجازية التى لايمكن أخذها مأخذ الحقيقة فى إدراك المجاز وقراءة الاحتمالات الدلالية لموازياته الرمزية.. ولذلك يبدأ خطاب كتاب الشـيخ «كشك» وينتهى بإلغاء كل العلامات المجازية والمصاحبات الاستعارية، والمغايرات التشبيهية، فيرى فى الرواية عملا فكريا حرفيا وليس رمزيا. وحقيقة لامجازا، ولذلك لا بد من محاسبة عباراته وجمله بمعناها الظاهر حتى لو كان فى ذلك تدمير لمبـدأ أدبيـة الأدب ومجازيته التى هى صفات غير معترف بها أصلا فى هذا النوع من القراءة الظاهرية الحرفية التى يتم اختزال لغتها فى بعد دلالى واحد، ويتم توجيه هذا البعد بما يتفق والإدانة المسبقة أو المقصد المقرر للحكم الذى يسبق قراءة الكتاب.

ثانيـا: لايعرف خطاب الكتاب ما نسـميه بـأن الأدب كل الأدب حَمال أوجه – كما لا يعرف سماحة العقلانية الإسـلامية.. ويقترن غياب السـماحة بغياب إمكانات التأويل ويرفضهـا، وهو المبدأ الذى لا يمكن فهم القرآن الكريم وتنزيه الخالق دونه، وكيف نفهم، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ – [سـورة النسـاء آيـة: ١٢٥] – أو ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ – [سورة القيامة آية: ٢٢] – إلا إذا تأولناها بما يعنى التنزيه ويبعدنا عن التشبيه والتجسيد؟

وبدلا من قراءة الرواية قراءة تأويلية من منظور التسامح العقلانى تتم القراءة على أساس ظاهرى حرفى لا يقبل التأويل أو يعترف به، فيتجه إلى مقصده التكفيرى فى تقاليد حنبلية متشددة رافضة التأويل، وميالة إلى الاتهام المسبق والتكفير الجاهز.

ثالثا: يلزم عن هذه التقاليد إيقاع التطابق بين النص الروائى وعقلية الكاتب ومعتقداته وذلك دون تمييز بين القول والقائل، وذلك على الرغم من أن التقاليد النقدية البلاغية فى تراثنا العربى تمايز بين الاثنين، وتفصل بين ما يوصف به القائل وما يوصف به القول منكرة إيقاع الاتحاد بينهما، وهو المبدأ الذى استمر عليه النقد الأدبى فمايز بين المبدعين وشخصياتهم وأقوالهم من ناحية كما مايز بينهم والرواة (على اختلاف أنواعهم) من ناحية موازية، ولولا ذلك لكان راوى «أولاد حارتنا» هو «نجيب محفوظ» وأصدقاؤه فى الرواية هم أصدقاؤه فى الحياة. وتخيل: ماذا يمكن أن يكون عليه الفن لو طابقنا بين القائل والقول، المبدع والشخصية، الراوى والمروى عنه؟! إن النتيجة ستكون مضحكة، ويكون كل مبدع عشرات الشخصيات الخيرة والشريرة التى رسمها.

رابعا: ويقترن بذلك ما يمكن أن نسميه «أحادية المقصد» أو «خرافة المقصد» فيما يقول بعض النقاد وبدأ ذلك من افتراض أن «أولاد حارتنا» كتاب دينى حرفى الدلالة، إنكار المجاز فيه يكافىء إنكار دلالاته ومقاصدها الأخرى، فإلى جانب المقصد الدينى هناك المقصد الاجتماعى، والمقصد السياسى، والمقصد الاقتصادى. وتعدد المقاصد هو جزء من تعدد الدلالات وتفاعلات سياقاتها، وذلك بما يجعل معنى أى جزء قابلا للاختلاف حسب الزاوية العلائقية التى نراها وقتها، والتفاعلات النصية التى تنتج احتمالات متنوعة للمعنى أو المعانى.. وفى حالة «أولاد حارتنا» تحديدا لا يمكن تجاهل الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى ترتبط بالظلم والعسف والحلم المقموع دائما بمشرق النور والعجائب... وأتصور أن اختزال الرواية فى بعد دينى ضيق الأفق.. إنما هو فعل أيديولوجى، بالمعنى الذى يجعل الأيديولوجيا مرادفة للوعى الزائف.. ذلك أن القراءة الحرفية لا تلفت الانتباه إلى ما فى الرواية من إدانة لظلم النظار، وفتوات الحارة وما يترتب على وجودهم وما يقترن بحضورهم من معتقلات وسجون.. والسكوت على هذه الأبعاد والدلالات سكوت عن الحق...

خامسا: أن خطاب الكاتب لا يفارق «أولاد حارتنا» إلى غيرها من أعمال «نجيب محفوظ» السابقة أو اللاحقة التى يمكن أن تؤكد منظورا مغايرا أو حتى مناقضا، أو تسهم فى تعديل أو تغيير المنظور إلى الرواية التى تم اختزالها فى بعد واحد حرفى ذا دلالة..الخ.

والواقع أن القارىء لكتاب الشيخ يذهله أن الشيخ فضلا عن عدم فهمه للرواية موضوع حديثه، فإنه لم يقف فى حديثه عند الرواية وتحليلها، بل إنه لم يقم بتحليلها وبيان ما يمكن أن يفهمه منها، فقد وقف عند التفسير الذى تراءى له وتجاهل أنه بصدد رواية وليس بصدد عمل بحثى أو تاريخى، وراح يسبُّ تارة.. ويشتم تارة، ثم يتحدث عن النبّى المختار، وعن أهل بيته، وعن صادق رسالته، وعن أنصاره، والمؤمنين به حديثا فياضا لا علاقة له بموضوع الرواية الذى جعله موضوعا للكتابة.. حتى إن ما يخص الحديث عن الرواية حديثا خالصا لا يبلغ سوى نسبة ضئيلة جدا من صفحاتها – وهو فى نفس الوقت ليس حديثا، ولا مقالا، ولا بحثا، وإنما هو مجموعة من التخريجات الملفقة، والتفسيرات المريضة، وما يبنى على ذلك من أحكام خاطئة – تصل بالمؤلف كما تصل بالكتاب إلى حد الكفر – والعياذ بالله.

* * *

عرض الكاتب لكتاب الدكتور «المطعنى»:

ويعرض الكاتب – بعد ذلك – لكتاب: جوانيات الرموز المستعارة لكبار «أولاد حارتنا» للدكتور «عبد العظيم المطعنى» – رحمه الله – وقد سبق أن عرضنا فى مبحث كامل من هذا الفصل لذلك الكتاب.. هذا ولم يطل الدكتور «عصفور» فى تناوله إذ أنه لم يجد فيه – من وجهة نظره – خلافا أو اختلافا عن كتاب الشيخ «عبد الحميد كشك» – وإن كنا نختلف فى هذا الرأى كما سبق لنا أن بيّنا ذلك فى موضعه

• هذا وبعد استعراض للكتاب يخلص د. «جابر عصفور» إلى قوله:

«ولا يختلف منطق كتاب «المطعنى» أو غيره عن منطق الخطاب التكفيرى الذى يتبنى عليه كتاب الشيخ «عبد الحميد كشك»، فالخصائص والتكوينات والآليات الخطابية هى فى النهاية. فقط يمكن الاختلاف فى الوسيلة أو الاتجاه لكن الاتفاق فى الغاية النهائية والهدف الأسمى واحد لا مغايرة فيه. ولذلك يمكن «لعبد الحميد كشك» أن يعتمد على ثقافة مغايرة، وأن يصوغ خطابه بآليات شفاهية، مقابل «المطعنى» الذى يعتمد على آليات كتابية وعلى محاولة لكشف عن (جوانيات الرموز المستعارة). كأن يمضى فى الطريق الذى

مضـــى فيه «الغزالى» قديمـــا عندما كتب عن (فضائح الباطنية)، ولذلك يتوقف عند كل رمز كاشفا عن نظيره الحرفى فيما لا يخامره شك.. مؤكدا أن القصد كله من تحليل الرواية هو الكشف عن خروجها على الثابت المعلوم من أمر الدين».

ويخلـــص الكاتب من ذلـــك إلى قوله عن الدكتور «المطعنى»، أنـــه يرى أنه لما كان فهم «أولاد حارتنا» يصعب على القارىء العادى فى مكر الكتابة المراوغة، فإن كتاب «المطعنى» يشرح لهذا القارىء كل أنواع الرموز (الشخصية والمكانية والمعنوية) سواء كانت رموزا شفيفة يمكن فهم معناها بيســـر وســـهولة، أو كثيفة لا يفهم المراد فيها إلا بعد فكر طويل وتأمل عميـــق. وخلاصة كتاب «المطعنى» أن الرواية تؤكد أن «محفوظ» كتبها حين كان زاهدا فى (الدين) كل الزهد، ثائرا عليه، فراح يشفى نفسه الثائرة بالأساليب الرمزية الماكرة، مناصرا للعلمانية الجاهلة. فالرواية – من هذا المنظور – آثمة (مجرّمة) بكل المقاييس: وطنيا وقوميا ودينيا. والتماس البراءة لها مســـتحيل مستحيل ولذلك يأتى الحكم النهائى على الروايـــة كالتالى ولخص ما انتهى إليه «المطعنى» من نصائح وجهها «لنجيب محفوظ» على النحو السابق لنا ايراده.

ومع موافقتنا على الآراء التى خلص إليها الكاتب إلا أننا نرى أن الشيخ «عبد الحميد كشك» بدا انفعاليا خطابيا طوال صفحات كتابه أما الدكتور «المطعنى»، فقد بدا هادىء النبرة فى محاولـــة للإيهام بأنه يلتمس أســـلوب البحث والتمحيـــص العلمى – بينما أن الحقيقة أنه كان أبعد ما يكون عنهما. غفر الله له ولنا ولجميع من تناول هذا الموضوع بقول أو حديث.

* * *

المبحث السابع

أولاد حارتنا

بين

خصوصيتها المصرية وعموميتها الإنسانية

للكاتب «محمود أمين العالم»

١ - الكاتب:

ناقـد منصف، يجيد التحليل الموضوعى – والفنى – للأعمال الإبداعية، وهو وإن كان يسـارىّ النزعة – ولاقى بسـبب ذلك متاعب كثيرة – إلا أن ذلك لم يكن يؤثر فى عمله النقـدى، وإن كان يعلى من شـأن من يميلـون فى كتاباتهم إلى معالجـة أحوال أصحاب الطبقات الدنيا وما يعانون من مشـاق. درس الفلسفة، واشتغل بالفكر وبالصحافة، وبالنقد الأدبـى، فأبـدع فى هذا المجال، وله – وآخرين – كتيب مشـهور «فى الثقافة المصرية» مازال موضع إشادة وتقدير.

وقـد تناول رواية «أولاد حارتنا» فى فصل مطوّل ضمن «كتاب اليوم» الذى صدر بعنوان حكاية «أولاد حارتنا».. وقد ضم ثلاثة فصول، كان أبرزها – وأكثرها عمقا – هو هذا الفصل الـذى كتبه «العالم» وقد كتبه عن علم وعن دراسـة، وضمّنه نظـرات صادقة، وتحليلات عميقـة مزجت بين النظـرات الفنية والاجتماعية على حد سـواء، كما تعرض لما قيل من التفسيرات الدينية (ذلك الكتاب صدر عام ١٩٩٤م).

٢ - الهم المصرى فى أدب «نجيب محفوظ»:

يقرر الكاتب أن فى أدب «نجيب محفوظ»: – «تنويعات وتغييرات واختلافات وتطويرات لا تتمثل فحسب فى المراحل المختلفة المتجددة لإبداعه الروائى، بل أحيانا داخل المرحلة الواحدة.. مع وجود بعض الثوابت الأساسـية فى هذه المراحل جميعا.. فهناك نسـق عام لأدبه كله، ولكنه نسـق يتدفق بأمواج متتابعة متجددة متنوعة متراوحة مختلفة من الرؤى

والأبعـاد والأعماق والتوجيهـات والمواقف.. وأقول أنه لم يكن أمرا عابرا أن يبدأ نشـاطه الثقافى والإبداعى بترجمة كتاب إنجليزى عن مصر الفرعونية.. ثم يكتب بعد ذلك روايات مستلهمة عن التاريخ المصرى القديم.. وأكاد أقول أن هذه النزعة المبكرة للتعرف على تاريخ مصـر، وصياغته روائيا، هى سمة أساسـية، وثابت جوهرى فـى أدب «نجيب محفوظ» كلّه.. وإنما أقصد بذلك الهم المصرى الشـامل، الكيان المصرى، الهوية المصرية، الحقيقة المصريـة، المزاج المصرى، الروح المصرية، المسـألة المصرية، الطريـق المصرى، لكى تكون مصـر، وتتحقـق مصريتها، ولكى تعود مصـر وتتحرك وتتقدم.. ولهذا فهو فى مشـروعه الإبداعـى المتنامى لا يـؤرخ لمصر تأريخا سياسـيا، بل يؤرخ تاريخـا عميقا، يجمع بين الاتجاهات السياسية، والأوضاع والمواقف الاجتماعية والشعبية، والأذواق الأدبية والفنية، والقيـم الأخلاقية، والملامح الموضوعيـة والذاتية المختلفة، الفرديـة منها والمجتمعية فى تفاعلها وتنويعاتها. فى ثوابتها ومتغيراتها، فى تناقضاتها وتوافقاتها. وهو لا يعّبر عن هذا تعبـيرا روائيـا وصفيا، بل تعبيرا صراعيا من ناحية، وتعبيرا قيميا من ناحية أخرى، وإن لم يفصح عن هذا الجانب التقييمى التوجيهى بشكل جهير فى بنيته الروائية الفنية.. غير أنه كان هناك دائما وما يزال محور أساسى تكاد تدور حوله أغلب تساؤلاته فى تجسيدها الروائى الفنى، هذا المحور – فى تقديرى – هو محور السـلطة ببعديها: البعد السياسـى العملـى، والبعد الأيديولوجى والقيمى. أو بتعبير آخر: طبيعة السـلطة الحاكمة المتحكمة فى مصر، وطبيعة الفلسفة والقيم السائدة فى إطار هذه السلطة، وما يواجهها من صراعات وفلسفات وقيم أخرى..» – (الصفحات من ٩٧ إلى ٩٩).

٣ - فى مواجهة الوضع بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م:

ومن الطبيعى ونحن مع كاتب يسارى، أن يصدر فى تقييمه لثورة يوليو ١٩٥٢م – وفى تقييمه لها، وتقييمه لموقف «نجيب محفوظ» منها من واقع نظرة اليسـار وإن حرص على أن يلتزم «الموضوعية» و«الحيدة» إلى حد كبير فى حديثه – قال (ص ١٠٠ وما بعدها):

لقد قامت سـلطة جديـدة، وبدأت ملامـح غامضة. لم تتحدد بعـد لخريطة جديدة، وكان من الطبيعى أن يتسـاءل «نجيب محفوظ» مع غيره من المثقفين والمفكرين عامة «هل هـذه الثورة هى مجرد انقـلاب علوى.. لن يغيِّر من طبيعة السـلطة أو بنية المجتمع؟ أم هى ثورة حقيقية سـتعيد بناء السـلطة والمجتمع بناء جديدا فى مختلف جوانبه؟ ولم تكن

التســاؤلات مجرد تساؤلات نظرية.. ولهذا كان من الطبيعى أن يتوقف «نجيب» المشحون بالهمِّ المصرى لا عن مواصلة اســتكمال مشــروعه السابق فحسب، بل أن يتوقف تماما عن الكتابة؛ بل لعله قال آنذاك: لم يعد عندى ما يقال.. وطوال سبع سنوات.. حققت الثورة العديــد من الأحلام الوطنية والتقدميــة – إلا أن الثورة – فى تحقيقها لهذه الأحلام.. لم تتصادم فقط مع أعوانها التقليديين.. وإنما تصادمت كذلك مع قوى سياســية – اجتماعية وأيديولوجية كانت قد تحالفت معها فى البداية، بل شــاركت معها فى قيام الثورة، مثل حركة الإخوان المســلمين، وفصيل من فصائل الحركة الشــيوعية المصرية. وكان من نتيجة ذلك: تصفية البنية السياســية التى كانت ســائدة، وإلغاء الأحزاب، وفرض نظام التنظيم السياسى الواحد وفضلا عن هذا فقد امتلأت السجون والمعتقلات.. بالشيوعيين.. والإخوان المســلمين.. ولهذا فبرغم ما حققته الثورة مــن إنجازات، واتخذته من مواقف كانت بعض أحلام «نجيب محفوظ» وأحلام المثقفين الوطنيين والتقدميين عامّة آنذاك. إلا أن هذا الوضع السياسى الملتبس.. قد فجّر أزمة بين المثقفين والثورة عبّر عنها «محمد حسنين هيكل» بعد ذلك فى عام ١٩٦١م فى كتابه «أزمة المثقفين».

ولم يكن توقف «نجيب محفوظ» عن الكتابة منذ قيام الثورة حتى أواخر الخمسينيات إلا تعبيرا عن هذا الوضع الجديد الملتبس المتناقض بين شــعاراته ومنجزاته السياسية والوطنية والاجتماعية المتقدمة وبين الشكل غير الديمقراطى فى الممارسة السياسية والاجتماعية.

لا شــك أن الكاتــب عبّر عــن هذا الوضع بصراحة.. وهو مــا لم يكن «نجيب محفوظ» يبديه فى صراحة – سواء فى كتاباته أو أقواله.. إذ أنه كان ولا شك يشير تلميحا إلى تلك الحقائق التى ذكرها الكاتب فى عبارات صريحة.. ولعل ميل الكاتب إلى اليســار هو الذى دفعه إلى هذه الصراحة، وتلك المصارحة:- وهو ما سوف يدفعه إلى المزيد فيما يلى..!

٤- صدور الرواية فى أشد اللحظات تأزما:

• يذكر الكاتب بعد ما ذكره من تمهيد – ص١٠٢ و١٠٣ – أنه:

«فــى هذا الإطار صدرت رواية «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٩م، لعلّه بدأ كتابتها قبل ذلك بعامين أو بعام ونصف العام، وبدأت جريدة الأهرام فى نشر الرواية مسلسلة يوميا ابتداء من يوم ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩م حتى يوم ١٩٥٩/١٢/٢٥م – وكان صدورها فى لحظة من أشد لحظات تاريخ ثورة ٢٣ يوليو تأزما: فمئات الشــيوعيين والإخوان المســلمين فى السجون،

والمعركة على أشدّها بين قيادة الثورة وبين من كانوا حلفاء لها بالأمس من قوى يسارية وشيوعية عربية، فضلا عن الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية والحركات والتنظيمات الديمقراطية والتقدمية في العالم أجمع».

«وقد أغامر بالقول بأن «نجيب محفوظ» كتب روايته «أولاد حارتنا» كردّ فعل نقدي أدبي إبداعي لهذا الواقع السياسي والاجتماعي والأيديولوجي الجديد الذي أخذت تسعى ثورة يوليو إلى تحقيقه. فهذا الواقع الجديد لم يكن قد تحدّدت ملامحه النهائية بعد، وإن تحددت بعض ملامحه، وخاصة في هذه العلاقة الملتبسة والمتناقضة بين الشعارات والمنجزات المتقدمة لثورة يوليو، وبين ممارساتها اللاديمقراطية من الناحية السياسية – وكان «نجيب» قد انقطع عن مواصلة الموضوع الاجتماعي الذي كان شاغله ومادته التي يستلهمها في إبداعه الأدبي السابق والذي جاءت ثورة يوليو فخلخلت وغيّرت من خريطته. ولهذا لم يستطع أن يكتب عن الواقع الجديد – إذا أراد أن يكتب عنه – بعناصر مستلهمة من الواقع القديم، وما كان هذا الواقع الجديد قد استقرت ملامحه النهائية حتى يتمكن من الكتابة عنه، فضلا عن أن الطابع العسكري لسلطة الحكم الجديد وللوضع العام ما كان يتيح له التعبير الواقعي إذا أراد أن يعبّر عنه. على أن «نجيب محفوظ» كان يريد أن يكتب، وأن يعبّر. وكان مأزقا أن يعيش هذا الالتباس والتناقض بين الشعارات والممارسات، ولعله كان يشير إلى نفسه على لسان الرواية في افتتاحية الحكايات، كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم أو سوء معاملة، أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء، فقال بحسره: (هذا بيت جدنا، جميعنا من صلبه، ونحن مستحقوا أوقافه، فلماذا نجوع ؟وكيف نضام ؟، ثم يأخذ في قص القصص والاستشهاد بسير «أدهم» و«جبل» و«رفاعة» و«قاسم» من «أولاد حارتنا» الأمجاد).

والكاتب هنا يميل إلى أن يمضي بالمؤلف إلى منطقة التعبير عن الوضع القائم عند صدور الرواية، بحيث يعبّر عما جرى بأحداث ما وقع للحارة على مدار تاريخها من ظلم وقهر وعسف.

فالكاتب تذكر ما حدث في فترة ظهور الرواية من حشد في السجون، ومصادرة للحريات وإقامة تنظيم وحيد يكون هو صوت السلطة وما عداه يخمد.. يتذكر الكاتب ذلك فيعمد إلى تفسير الرواية على أن ما تضمنته من صور للظلم والتعنت وقطع الألسنة إنما يقصد

به المؤلف التعبير عن حاضر يعيشه، أو الإيماء إليه، أو استحضار صورة له من الماضى.. وهذا هو التفسير السياسى الذى قال به البعض. وقد تحتمل الرواية مثل هذا التفسير، أو قد يكون هو بعض مراميها.. وعلى كل فهو يمثل اجتهادا قد يكون له ما يسانده، أو على الأقل ما يبرره.

٥ - الواقع الرمزى والرمز الواقعى: و«الجبلاوى»:

ويمضى الكاتب يتحدث عن «أولاد حارتنا» والأسلوب الذى اختاره «نجيب» لصياغتها ودواعيه إلى ذلك فيقول (ص١٠٣ وما بعدها):

«كانت حال «نجيب» فى ظل الأوضاع الجديدة – كحال هذا الراوى الذى أصبح هو نفسه بعد ذلك – تدعوه إلى أن يحكى، وتفرض عليه أن يحكى، بالواقع الرمزى بدلا من الرمز الواقعى الذى كان منهجه السابق من رواياته، ولم يكن هناك أفضل وأسلم وآمن من تاريخ الرسل نموذجا جاهزا يتخذ من إطاره البنيوى العام، ومن قيمه المثالية الرفيعة مادة ينسج بهما نقده للواقع السائد، ورؤيته الفكرية والفنية التى يتطلع إلى تحقيقها فى مصر، ولمصر، وربما للإنسان المعاصر حيث كان».

«لم يكن الأمر إعادة كتابة لتاريخ هذه الرسالات الدينية، وإنما استلهمها رمزا لنقد الحاضر الملتبس، والتبشير بعالم أفضل يمكن أن تتجدد فيه السلطة تجددا لمصلحة الناس جميعا. ويزول الالتباس، والازدواج بين مرجعية القيم المثالية العليا والممارسة العملية، وتتوافر فيه إمكانية الانتصار النهائى للغايات العليا للرسالات الدينية بالإضافة إلى الخبرات الإنسانية المتجددة التى تتمثل فى المعرفة والعلم والتكنولوجيا».

«على أن رواية «أولاد حارتنا» – فى تقديرى – كانت تجتهد لتقديم موقف نقدى بديل لمصر.. ولهذا، «فالجبلاوى» فى الرواية هو هذا الجد الأكبر لكل أولاد الحارة، الذى يطل دائما على الحارة، ويغمر أفقها بجسمه العملاق، ووصاياه العشر منذ بداية نشأة الحارة حتى وفاته.. هذا «الجبلاوى» ليس من الضرورى أن يُقرأ فى الرواية باعتبار أنه الله الخالق لكل شىء.. وإنما على أنه يرمز إلى ما يعنيه الله فى الأديان جميعا من تجسيد معنوى لأشرف قيم الحق والعدل والمساواة والمحبه والعلم المستمر.. إلا أن الله تحديدا وارد فى الرواية فى أكثر من موضع مما يجعل «للجبلاوى» دلالة خاصة مختلفة.. «الجبلاوى» إذن فى الرواية ليس هو الله خالق الكون رب السماوات، وفضلا عن هذا فإن الشروط العشر فى

الرواية ليست هى الوصايا العشر المذكورة فى النصوص الدينية، وإنما هى اشارة متروكة فى الروايــة مجهُلة بغير تحديد، وفى تقديرى أنها متروكة هكذا عن عمد لأنها وصايا تتجدد بتجدد احتياجات الحياة، رغم جذورها التاريخية الثابتة..».

ويمضى يتحدث عن «الجبلاوى» من زاوية أخرى فيقول (ص ١٠٤، ١٠٥) ما يأتى:

(«الجبــلاوى» فى هذه الرواية فى إيحائه الآنى الذى يحدده الســياق التاريخى لكتابة الرواية فضلا عن القراءة الشاملة لأدب «نجيب محفوظ»، هو أقرب ما يكون إلى ما تحمله ثورة ٢٣ يوليو من شعارات ومبادىء وأهداف وقيم أساسية أى من مرجعية قيمية لسلوكها وممارســتها، كما كان الشــأن فى ثورة حملتها الرســالات الدينية من قبل، لهذا لم تفصح الرواية عن حقيقة الوصايا العشــر، التى يحملها ويخفيها «الجبلاوى»، وأن يكن يحاسب أبناءه بمقتضاها).

ويقــارن الكاتب بين وضع «الجبلاوى» وتصرفاته المحدودة، وعزلته التى طالت. وبين أوضاع من يسكنون الحارة وينعمون أو يشقون فيها من «الناظر» والفتوات فى ناحية وسائر سكان الحارة من ناحية أخرى، فيقول – ص ١٠٥ – ما نذكره فيما يلى:

«وفى مواجهة هذه القراءة الآنية «للجبلاوى» ووصاياه المبدئية العشــر، تجرى الممارسة الســلوكية العمليــة المتناقضة لهذه الوصايا ولهــذه المرجعية القيمية عامــة: ففى مواجهة «الجبلاوى» ووصاياه كان نظار الأوقاف، والفتوات الذين يحمونهم ويشاركونهم فى الاستئثار بريع الوقف، وحرمان أولاد الحارة منه، فضلا عن إذلالهم. إنه التناقض بين المثال والواقع المتحقق. بين القيمة والمرجع، والممارسة المضادة، بين القدرة والنموذج اليدوى».

«خلاصــة الأمــر، أن جوهر «أولاد حارتنا» – فى تقديــرى – هو النقد القيمى الفكرى الرمزى للســلطة الناصرية للتناقض بين شــعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياســية، إلا أن الرواية فى الوقت نفسه تسعى إلى تقديم رؤية تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع، بين السلطة والمجتمع، بين السياسى والأخلاقــى، بين النظــرى والعملى، بين الموضوعى والذاتى فى مصر بشــكل عام، وبهذا تكون هذه الرواية رغم بنيتها الرمزية الملحمية، امتدادا للهم الأكبر الذى كان يشــغل فكر «نجيب محفوظ»، وضميره وإبداعه الأدبى، وأعنى به قضية السلطة فى مصر..».

وهكذا يخلص الكاتب إلى أن الرواية إنما تعنى الســلطة فى مصر، بل والســلطة التى قامــت بعــد ٢٣ يوليو.. هى التى تعبر عنها أحداث الروايــة.. ولعل المؤلف كان يتنبأ بما

ستأتى به الثورة فى الستينيات من حديث عن «الميثاق» الذى هو كالوصايا العشر له الصدارة، وهو المثل الأعلى. الملزم للجميع حكاما ومحكومين، فإن تعذر ذلك، فلا أقلّ من أن يُستغل فى تأديب – وإذلال – المحكومين. التشبيه القائم أو أوجه الشبه التى يجدها الكاتب بين أحداث وشخصيات الرواية من ناحية وبين ما يجرى علىأرض المحروسة فى عهدها الجديد – من ناحية أخرى – مسألة عادية بالنسبة للكاتب بأفكاره المعروفة، ولكننا نلاحظ أنه وإن كانت هناك – ولا شك – بعض أوجه الشبه، إلا أن هناك أكثر من وجه للخلاف – وإن كان هذا التفسير قال به غير يساريين – على كل حال، نحن نحمد للكاتب شجاعته، ومحاولته إيجاد هذا التفسير الذى قارب الحقيقة فى أكثر من موضع، ولكنه بعد عنها أيضا فى مواضع عديدة..!!

٦- مراحل.. وثوابت:

وفى محاولة من الكاتب لتحليل داخلى لبنية الرواية.. يذكر أنها تتكون من خمس مراحل.. على أنه برغم تنوع هذه المراحل واختلافها من الناحية الفلسفية والقيمية فإننا نستطيع أن نتبين بعض الثوابت الأساسية فيها جميعا، وإذا كنا قد عرضنا من قبل فى تلخيصنا للرواية لتلك المراحل الخمس الذى مرت بها الرواية وأحداثها، فإننا نعرض فيما يلى إلى «الثوابت» التى لفتت نظر الكاتب، وما قدرها من دلالات لها – وهو يرى أنها على نوعين: ثوابت مادية تصل به إلى الثوابت المعنوية والقيمية..

• فعن الثوابت المادية يذكر الكاتب «ص١٠٦» قوله:

«ولعل أول هذه الثوابت هو الثابت الجغرافى.. فنحن طوال الرواية نتحرك فى حارة معينة معروفة من حوارى القاهرة.. وتكاد الحارة فى هذه الرواية أن تكون صورة واقعية دقيقة لحوارى وأزقة ومنعطفات الجمالية.. والرواية تعدُّ هذه «الحارة» فى مستهل صفحاتها الأولى أصل مصر أم الدنيا. وهذا ما ينقل الجغرافيا القاهرية المحدودة إلى الجغرافيا المصرية الأكثر اتساعا وامتدادا ثم إلى الجغرافيا الأرضية الإنسانية الشاملة».

«وتشير الرواية إلى ثابت جغرافى آخر فى الخلاء. ويكاد الخلاء يشكل فى الرواية أكثر من دلالة رمزية: فهو المطلق حينا، وهو ساحة الطرد والوحدة والحرمان من رحمة «الجبلاوى» حينا آخر، أو هو ساحة الهروب من طغيان الفتوات حينا ثالثا، وهو ساحة العدوان والمعارك حينا رابعا، وهو ساحة التأمل والاستلهام حينا خامسا..».

«وهناك الثابت اللغوى الذى يعمق الطابع الجغرافى المحدد، ويضفى عليه دلالته المحلية الخاصة أو يؤكد له باستمرار هذه الدلالة، ويتمثل هذا فى لغة الرواية، سواء فى بعض سردها، أو فى حواراتها.. فبالرغم من أنها لغة عربية وضيئة.. فإنها زاخرة بالتعابير والأهازيج الصارخة بشعبيتها القاهرية.. مثل: «يادهية دقى».. «العجل وقع هاتوا السكين».. الخ».

«وتنقلنا هذه.. إلى جغرافيا بلاغية.. وتتمثل فى سلامة التشبيهات الطبيعية.. أى محاولة تفسير بعض الحالات النفسية أو المعنوية بما يشابهها من حالات مادية أو طبيعية وما أكثر أمثلة هذه التعابير.. مثل «انطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق من فيه عند العطس بغير ضابط».. و«دموعك إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسدك»..

«أما الثوابت المعنوية الأساسية فى الرواية وفى مقدمتها شخصية «الجبلاوى» التى يهيمن وجودها على الرواية كلّها.. و«الجبلاوى» – كما سبق أن ذكرنا – هو رمز لمرجعية القيم الإنسانية الأساسية التى يدور حولها الصراع طوال الرواية.. قيم العدل والمساواة والحق والكرامة التى ينبغى أن تسود بين البشر.. فالمعركة طوال الرواية حول «الجبلاوى» ليست مجرد معركة معنوية قيمية أخلاقية بل ترتكز على أساس مادّى موضوعى هو ملكية الأوقاف وضرورة توزيعها على أولاد الحارة.. على أنه فى مواجهته هناك ثابتان آخران يكملان هذه المرجعية تكميلا ضديا هما نظار الوقف الذى يسيطرون على ريع الوقف وعوائده يحتكرونه لصالحهم وحدهم وهناك ثابت آخر هو امتداد للنظار ويرتبط بالسلطة ممثلا السلطة المعنوية أو التغييب المعنوى عن المرجعية القيمية وهو الحشيش والمخدرات عامة.. إنه يفسد أولاد الحارة ويغيبهم».

وإذ أشار إلى الفتوات كأحد هذه الثوابت.. فإنه انتهى إلى أنه:

«هكذا تقوم بنية الرواية.. منذ جزئها الثانى على ثنائية ضدية استبعادية تتمثل من ناحية «الجبلاوى» وشروطه العشرة كمرجعية أخلاقية ومعنوية وقانونية، وموضوعية وتتمثل من ناحية أخرى فى النظار والفتوات والحشيش كقوة انتهاك لهذه المرجعية وخروج على شروطها»..

ويعرض بعد ذلك إلى مراحل الرواية الخمس على النحو الذى سبق لنا عرضه فى مطلع هذا البحث.. حيث يفتتح الحديث بأن يقرر بأن هذه الثنائية الاستبعادية بين «الجبلاوى» ووصاياه العشر من ناحية، والنظار والفتوات والحشيش من ناحية أخرى، تتمثل فى ثنائية أخرى هى الأصل لهذه الثنائية، وهى ثنائية تنبع منذ البداية من «الجبلاوى» نفسه وتتمثل فى ولديه: «أدهم».. و«إدريس».. ومن «أدهم» يتسلسل نسل «جبلاوى» الولاء وأدهمى

الطبيعة – لو صح التعبير، وإن تنوعت فضائله ودعاويه ورسالاته ويتمثل فى «جبل» و«رفاعة» و«قاسم».. ويضاف إليهم «عرفة» وهو الإضافة المعرفية العلمية التكنولوجية العصرية لهذه الرموز الدينية.. ومن «إدريس» يتسلسل نسل نظار الأوقاف والفتوات – على أنه بين نظار الأوقاف والفتوات ثنائية أخرى قد تصل كذلك إلى حد الإبادة والاستبعاد عندما يحاول أحد نظار الأوقاف الاستئثار بريعها دون الفتوات كما حدث فى مرحلة «عرفة».. وهكذا يتحدد معمار الرواية تحديدا واضحا وحاسما فى هذ الصراع المستمر الذى يكاد أن يكون مطردا نمطيا من نسل «أدهم»، ونسل «إدريس» إنه ليس مجرد صراع ميتافيزيقى بين مفاهيم وقيم مطلقة، وإنما هو صراع عملى حول مصالح، حول ملكية أرض، ونظام حكم، وفلسفة علاقات محددة بين أولاد الحارة الواحدة، ولاشك أن هذا الصراع الذى عبرت عنه الرواية تعبيرا رمزيا هو صراع تاريخى إنسانى شامل، كان وما يزال جوهر الصراع البشرى عامة منذ نشأة المجتمع وظهور الملكية الفردية إلى اليوم..»

ويختم الكاتب – بعد استعراض تحليلى للمراحل الخمس بقوله (ص ١١٩):

(إن «أولاد حارتنا» – لو صح هذا – هى امتداد للثلاثية فى مرحلة جديدة من تاريخ مصر، وبأسلوب مختلف يتلاءم مع الأوضاع التى كانت سائدة عند صدورها، والتى كانت «أولاد حارتنا» تعبيرا نقديا لها. على أن روايات «نجيب محفوظ» التى صدرت بعد أولاد حارتنا تكاد أن تكون امتدادا لها: تتوزع فيها أولاد حارتنا حاملة الدلالة الإنسانية العميقة لرواية أولاد حارتنا بمستوى أو بآخر، بأسلوب أو بآخر، ونستطيع أن نتبين هذا بوجه خاص فى روايات: اللص والكلاب والطريق: والسمان والخريف، والشحات، وحكايات حارتنا والحرافيش، وغيرها).

«ولهذا تكاد رواية «أولاد حارتنا» أن تعبِّر عن النسق العام لأدب «نجيب محفوظ» فى مختلف تحليلاته ودلالاته – أنها ردّ فعل فكرى نقدى أخلاقى روحى لثورة يوليو ١٩٥٢م. ولكنها تخرج عن حدودها الآنية اللحظية المحددة لتعبر عن همومنا المصرية عامة، وتطلعنا ومجاهداتنا لتجاوز هذه الهموم شأن جميع روايات «نجيب محفوظ»، إلا أنها فى الوقت نفسه تفيض عن حدودنا المصرية إلى حدود إنسانية شاملة دفاعا عن طريق الكرامة والسعادة والخير والمساواة والحرية والتقدم للإنسان فى كل مكان».

* * *

وهكذا يختم «محمود أمين العالم» حديثه التحليلى، أو دراسته النقدية، التى حرص فيها على أن يضع القصة فى مكانها التاريخى الصحيح، وأن يفصِّل ظروف صدورها، ولم يكتف بأن يربط بينها وبين إنتاج «نجيب محفوظ» الذى سبقها بل يحرص على أن يربط بينها وبين ما تلاها من إبداعات ليبدو «محفوظ» وكأنه – وإن تنوع إنتاجه، وإن تعددت أساليبه – إلا أنه إنما يبغى تصوير المجتمع، ونقد آلياته، والكشف عن وقائعه.. هو مهموم بوطنه، وبأبناء وطنه، ومشاكل وطنه، لايفرق كثيرا بين هموم العيش، ومشاكل السياسة، فالكل يصب فى خانة الوطن، وحياة الوطن.. والكاتب وإن نحا بالرواية منحى سياسيا فلم يكن ذلك ليبعد بها عن التفسير الدينى ويبعد عنها شبهته، ولكن لأنه يرى أنها كذلك فعلا، ولا يتصور أن مبدعا مثل «نجيب» يرتضى لنفسه هذه السفاسف التى يريد المفسرون الدينيون أن ينحرفوا بالرواية ناحيتها، فيسيئوا بذلك إلى الفن، وإلى الدين، وإلى المقدسات فى نفس الوقت. «محمود العالم» يريد أن يقول نحن أمام عمل فنى يمثل مرحلة خصبة من مراحل إنتاج «محفوظ»، ونحن إزاء عمل له مدلول سياسى، ومفهوم اجتماعى، وهو بعيد كل البعد عن المفهوم الدينى، وإن كان يعتبر الدين عنصرا عاما وعاملا أساسيا لبناء مجتمع صالح ومع ذلك فنحن نأخذ على العالم ميله المبالغ فيه إلى تسييس الرواية وتعبيرها أو تصويرها للعهد الناصرى.. وإن كنا لا ننكر أن فيها ملامح عديدة تعنى ذلك العهد – ولكنها ليست كل الملامح، ففيها من ذلك العهد وفيها من عهود سابقة، وفيها من الحياة الجارية.. وفيها الكثير من تصوير الحياة المصرية الصحيحة بكل ملامحها وعيوبها.

ولكنها – من قبل ومن بعد – عمل فنى له قيمته، ومكانته.. وإن كان مقترنا برؤى مختلفة، إلا أن ذلك يعلى من قيمته، ويبتعد به عن ذلك المنزلق الذى يريد البعض أن يهووا بهذا العمل إليه..

.....

* * *

المبحث الثامن

طبع أولاد حارتنا فى مصر
متى؟ - وكيف؟

قبل أن تنتهى حلقات «أولاد حارتنا» التى كانت تنشـر مسلسة فى أواخر عام ١٩٥٩م على صفحات الأهرام.. ثارت الزوابع فى وجهها، وأبلغ مؤلفها أنها لن تنشـر فى كتاب فى مصر، وكفى ما أثارته من مشاكل عند نشرها فى الأهرام..

وقد بادرت دار الآداب فى بيروت إلى تلقُّف أصول الرواية وقامت بنشرها فى بيروت، ومنها انتشرت فى سائر الدول العربية وغير العربية، بما فيها مصر، بحيث أتيح لكل من يريد أن يقرأها ذلك.

ولكنها – مع ذلك – ظلّت غير مسموح بطباعتها ونشرها فى مصر لأسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها فيما سبق من فصول.. وظـل الأستاذ «نجيب» يقول إنه لن يأذن بنشرها فى مصر إلا إذا وافق الأزهر. غير أن الأزهر لم يوافق!

ومع ذلك قامت دار الشروق بطبع الرواية ونشرها فى مصر – وقد أصدرت طبعتها الأولى فى ديسمبر ٢٠٠٦م – كما أصدرت طبعتها الثامنة فى سبتمبر ٢٠٠٩م..

أما كيف صدرت؟ هل وافق الأزهر؟

أمـا عن موافقة الأزهر.. فلا أعتقـد أن موافقة رسمية قد صدرت عنه، وتضمنت عدولا عن الآراء السابقة التى أبداها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر..

ولا أعتقـد أن دار الشـروق بعثت إليه بطلب تخبره فيـه بعزمها على طبع هذه الرواية وتلتمـس منه إذنا.. ففى حـدود علمى إن مثل هذا الطلب لم يرفع إلى الأزهر، وبالتالى فلم تصدر موافقة عليه. وإلا لكانت دار الشروق نشرته وزينت به الكتاب.

غير أن الدار عند إقدامها على نشـر الرواية نشـرت على غلافها الخلفى كلمة للكاتب الإسلامى المعروف: دكتور «محمد سليم العوا» تضمنت كلاما طيبا عن الرواية.

كما أن الدار نشرت فى صدر الرواية شهادة للدكتور «أحمد كمال أبو المجد» وهو كاتب ذو ميول إسلامية وله كتابات وأحاديث مشرفة عن الإسلام.

وما زالت هاتان الكلمتان تنشران مع كل طبعة من طبعات الرواية.. وإن كانت «الشهادة» نقل موضعها إلى الصفحات الأخيرة من الكتاب.

ونشـــهد أن كلمة الدكتور «محمد سليم العوا»، وشهادة الدكتور «أحمد كمال أبو المجد» جديرتـــان بأن تعتبرا على رأس الكتابات التى تناولت الرواية بالدراســـة والعرض.. ولكن نكتفى بشهادة الدكتور «أحمد كمال أبو المجد».

* * *

هذه الشهادة

الشهادة التى توشك أيها القارىء – أن تتابع سطورها القليلة، سبق نشرها «مقالة» فى «الأهرام» يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤م، أى منذ أكثر من عشر سنوات، طرأت فيها على حياتنا الثقافيـــة والسياســـية أمور جســـام ازدادت فيها تجاربنا الفرديـــة والجماعية ثراء وتنوعا، وأحاطت بنا على مرّ شهورها وأيامها، أحداق وتطورات كبرى، داخل مصر، وعلى امتداد عالمنـــا العربـــى وامتداد الدنيا كلها.. تغيَّرت بســـببها نظرتنا إلى كثـــير من أمورنا الخاصة وأوضاعنـــا العامة.. ووقف بســـببها كثير منـــا من نفســـه وأمته موقـــف المراجعة والتأمل، والمجاهرة بالنقد لما يستحق النقد من أوضاعنا، كما ارتفعت نبرة المطالبة بالإصلاح السياسى والاجتماعى والثقافى، وانقدحت – بســـبب ذلك كله – شـــرارة حوار بدأ ثم تصاعد، ولا يـــزال دائرا بين جماعات الكتـــاب والمفكرين والباحثين ممَّن يطلـــق الناس عليهم «النخبة المثقفة» التى تفكر للمجتمع كلّه، وتطرح بين يديه قضاياه وهمومه، وتشتغل معه بطموحاته وتطلعاته وآماله فى الغد القريب والمستقبل البعيد..

لذلـــك، حـــين عَرضـــت علـــىَّ دار الشـــروق أن تجعل «هذه الشـــهادة» مقدمـــة لرواية «أولاد حارتنـــا» لكاتبنا الفذ الكبير «نجيب محفوظ» لم أتردد فى قبول هذا الاقتراح ولكنى رأيت من الضرورى أن أعيد قراءة هذه الشهادة، وأن أعيد قراءة «أولاد حارتنا» مرة أخرى، حتـــى أســـتوثق من أن ما ســـطره القلم عام ١٩٩٤م لا يزال – عنـــد صاحبه على الأقل – صالحا عـــام ٢٠٠٦م،وأن ما شـــهدتُ به فى شـــأن هذه الرواية التى أحدثت فى حياتنا

الثقافية دويا ظلّت أصداؤه تتردّد سنوات طويلة لازال موضع إيمانى واقتناعى.. فلما فعلت ذلك، بدا لى أن ليس عندى ما أضيفه أو أغيّره من سطور هذه الشهادة.. إذ الأمر – فى نهايته – يدور حول قضيتين لم يتحول فكرى ولم يتغير فى شأنهما:

أولاهما: أن من أصول النقد الأدبى التمييز الواجب بين الكتاب الذى يعرض فيه الكاتب فكرته ويحدد مواقفه، ملتزما – فى ذلك – بالحقائق التاريخية، والوقائع الثابتة، دون افتئات عليها، ودون مدارة لما يراه فى شأنها.. وبين الرواية التى قد يلجأ صاحبها إلى الرمز والإشارة، وقد يدخل فيها الخيال إلى جانب الحقيقة العلمية، ولا بأس عليه فى شىء من ذلك، فقد كانت الرواية – قديما وحديثا – صيغة من صيغ التعبير الأدبى، تختلف عن «الكتاب» والالتزام الصارم الذى يفرضه على مؤلفه.. وفى إطار «أولاد حارتنا» فإننى فهمت شخصية «عرفة» بأنها رمز للعلم المجرد.. وليست رمزا لعالم بعينه، كما فهمت شخصية «الجبلاوى» على أنها تعبير رمزى عن «الدين» وليست بحال من الأحوال تشخيصا رمزيا للخالق سبحانه وهو أمر يتنزه عنه الأستاذ «نجيب محفوظ» ولا يقتضيه أى اعتبار أدبى فضلا عن أن يستسيغه أو يقبله.

القضية الثانية: حرية التعبير والموقف منها، ذلك أنه مع التسليم بأن الحريات جميعها إنما تمارس فى جماعة منظمة، ولذلك لا يتأبى منها على التنظيم والتعبير إلا حرية واحدة هى حرية «الفكر والاعتقاد» بحسبانهما أمرا داخليا يسأل عنه صاحبه أمام خالقه، دون تدخل من أحد، حاكما كان ذلك الأحد أو محكوما.. أما حين يتحول الفكر إلى تعبير يذيعه صاحبه وينشره فى الجماعة، فإن المجتمع يسترد حقه فى تنظيم ذلك التعبير دون أن يصل ذلك التنظيم إلى حد إهدار أصل الحق ومصادرة جوهر الحرية، ذلك أن الهدف من إجازة هذا التنظيم إنما هو حماية حقوق وحريات أخرى فردية أو جماعية قد يمسها ويعتدى عليها إطلاق حرية الفرد فى التعبير؛ وتمنعها على التنظيم والتقييد، ويبقى مع ذلك صحيحا أن الأصل هو الحرية، وأن التقييد استثناء تمليه الضرورة، والضرورة إنما تقدر بقدرها، ومن شأن الاستثناء ألا يقاس عليه أو يتوسع فيه.

وأهم من هذا كله.. أن الشهادة التى قدمتها ليست رأيا لى، وإنما هى تفسير كاتب «أولاد حارتنا» لما كتبه؛ وبيان واضح لا يحتمل التأويل لموقفه من القضايا الكبرى التى أثارتها تلك الرواية.. وهى – على كل حال – آخر ما صدر عن «نجيب محفوظ»، أمدّ

الله فـــى عمره، حول القراءة الصحيحة «لأولاد حارتنـــا» باعتبارها «رواية» للخيال وللرمز فيها دور كبير.. وليست.

«كتابا» يقرأ قراءة حرفية للتعرف على موقف مؤلفه من القضايا التى يطرحها بعيدا عن الرمز والخيال..

وأدعـــو الله تعالى أن تتســـع عقولنا وقلوبنـــا لمزيد من حرية الكتاب والأدباء وســـائر المفكرين فى التعبير عن آرائهم؛ وإطلاق مواهبهم بالصيغ الأدبية التى يختارونها، دون حجر أو وصاية أو مســـارعة إلى الاتهام وإســـاءة الظن.. حتى لا «تكتم الشـــهادة» بيننا وتموت، وحتى لا تتجمد الأفكار على أطراف الألسنة والأقلام.. فتحرم الجماعة من زاد ثقافى وعلمى تحتاج إليه، وهى تشـــق طريقها للانبعاث والنهضة وســـط زحام حضارى وثقافى لا سابقة له فى التاريخ.

د. أحمد كمال أبو المجد

يناير ٢٠٠٦م

* * *

حول «أولاد حارتنا»

حين وقع الاعتداء الغادر على أديب مصر وكاتبها الكبير «نجيب محفوظ»، كنت خارج مصر.. وحين عدت إليها طلبت من الصديق الأستاذ «محمد سلماوى»، وهو من تلامذته المقربين، أن يصحبنى إليه لنؤدى واجب الاطمئنان عليه.. ولكنه - وسط شواغله الثقافية - تأخر فى ترتيب تلك الزيارة حتى عاد الأستاذ «نجيب محفوظ» إلى بيته قبل أيام من عيد ميلاده الذى شاركه فى الاحتفال به كثيرون من محبّيه ومقدرِّيه.. وإذا بالأستاذ «سلماوى» يتصل بى ليخبرنى أنه رتب للزيارة موعدا فى الخامسة من مساء اليوم التالى، وأننا سنذهب فى صحبته ومعنا المهندس «إبراهيم المعلم»، الذى تربطه ووالده بالأستاذ «نجيب محفوظ» علاقات ودّ قديمة وموصولة، ومعنا كذلك الإذاعى والإعلامى المخضرم «أحمد فراج».

وعلى باب «نجيب محفوظ» استقبلتنا بالحفاوة المصرية المعهودة السيدة الفاضلة زوجته.. ثم جاء الأستاذ «نجيب محفوظ» فى خطوات ثابتة طمأنتنا على قرب اكتمال شفائه، وأخذ يرحّب بنا فى ود شديد، ثم جلس بيننا.. وسادت فترة من صمت قصير، لأن أحدا منا لم يعد لهذا اللقاء أكثر من كلمات السؤال عن الصحة والتهنئة بعيد الميلاد.. ثم بدا لى - على غير ترتيب ولاإعداد - أن أقطع هذا الصمت.. فوجدتنى أقول: يا أستاذ «نجيب»، الجالسون معك الليلة كلهم من قرائك، جيلنا كان يجد فى كتاباتك ورواياتك شيئا بين فن الأدب وفن التصوير، وذلك بما نسجته فى وصف القاهرة وحياة أهلها، ونماذجهم المختلفة من وشى دقيق عامر بالألوان ملىء بالتفاصيل، حتى ليكاد القارىء يسمع فيه أصوات الناس، ويرى وجوههم، ويتابع حركتهم فى شوارع القاهرة وأزقتها ومساجدها ومقاهيها، ويكاد - دون أن يشعر - يدخل طرفا فى علاقات بعضهم ببعض.. وكم من مرة تعرَّف بعضنا على أحياء القاهرة وشوارعها بما كان قرأه عنك فى وصفها وتصوير حياة أهلها.. وأضفت: ثم إنك يا أستاذ «نجيب» تظل - فى خواطرنا - قبل كل شىء وبعد كل شىء كاتبا وأديبا مصريا خالصا، لم تدجن كتاباته وآراؤه بتأثيرات غربية تنال من نكهتها المصرية ومذاقها العربى الأصيل.

وبدا من قسمات وجه الأستاذ «نجيب محفوظ» وحركة يديه أنه يقبل هذا الوصف له ولكتاباته وأنه يرتاح إليه.. فشجعنى ذلك على أن أتقدم فى الحوار خطوة أخرى، فقلت:

ويبقى أن نسألك عن رأى عبوت عنه منذ أسابيع قليلة حين بعثت برسالة وجيزة إلى الندوة التى نظمتها الأهرام تحت عنوان «نحو مشروع حضارى عربى»، فقد قلت للمشاركين فى الندوة: إن أى مشروع حضارى عربى لابد أن يقوم على الإسلام، وعلى العلم.. ولقد وصلت رسالتك – على قصرها – واضحة وصريحة ومستقيمة ولا تحتمل التأويل، ولكن يبقى – ونحن معك نسمع لك وننقل عنك – أن تزيد هذا الأمر تفصيلا، نحتاج جميعا إليه وسط المبارزات الكلامية التى يجرى فيها – ما يستحق الحزن والأسف – من ألوان تحريف الكلام وتزييف الآراء والافتئات على أصحابها..

وفى حماسة شديدة، وصوت جهير ونبرة قاطعة، انطلق «نجيب محفوظ» يقول: وهل فى تلك الرسالة جديد ؟.. إن أهل مصر الذين أدركناهم ،وعشنا معهم، والذين تحدثت عنهم فى كتاباتى كانوا يعيشون بالإسلام، ويمارسون قيمة العليا.. دون ضجيج ولا كلام كثير.. وكانت أصالتهم تعنى هذا كله.. ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأى وأمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس، هى تعبير أهل مصر الواضح عن إسلامهم.. لكنّى فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم، لأن أى شعب لا يأخذ بالعلم ولا يدير أموره كلها على أساسه لايمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب.. إن كتاباتى كلها، القديم منها والجديد، تتمسك بهذين المحورين: الإسلام الذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا.

وأحب أن أقول: إنه حتى رواية «أولاد حارتنا» التى أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية. ولقد كان المغزى الكبير الذى توجت به أحداثها.. أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلا فى «الجبلاوى»، وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا فى «عرفة» أن يديروا حياتهم على أرضهم (التى هى حارتنا).. اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم.. فعادوا من جديد يبحثون عن «الجبلاوى».

وأضاف: إن مشكلة «أولاد حارتنا» منذ البداية أننى كتبتها «رواية»، وقرأها بعض الناس «كتابا»، والرواية تركيب أدبى فيه الحقيقة وفيه الرمز، وفيه الواقع وفيه الخيال.. لا بأس بهذا أبدا.. ولايجوز أن تحاكم «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلا وهو يعبر عن رأيه فى رواية..

وفى ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة، ويكفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة»، فهو مثلا يتحدث عن الحاكم، ويطلق عليه وصف «الأسد» ولكنه بعد ذلك يدير كتابته كلها داخل إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان.. منتهيا بالقارىء فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يجريها على ألسنة الطير والحيوان.. وهذا هو الهدف الحقيقى الذى يتوجه إليه كل كاتب صاحب رأى.. أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتاباته..

قلت: الواقع أننى قرأت «أولاد حارتنا» منذ عدة سنوات، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليست كتابا، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز. ولكن الذى استقرَّ فى خاطرى على أى حال وبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا، والذى رأيته - معبِّرا عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه - هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة «الحارة»، التى ترمز للمجتمع الإنسانى، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد (الجبلاوى) حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون «بعرفة» الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم العادية والموجهة لأهل الحارة.

وتابع الأستاذ «نجيب» حديثه الأول قائلا:

إننى حريص دائما على أن تقع كتاباتى فى الموقع الصحيح لدى الناس، حتى وإن اختلف بعضهم معى فى أرائى، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين «الرواية» و«الكتاب» قد وقع فعلا عند بعض الناس، وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر، (ولايزال هذا موقفى إلى الآن).

قلت: إننى أتمنى - يا أستاذ «نجيب» - أن يسمع الناس منك هذا الكلام الواضح الذى لا يحتمل التأويل؛ ليعرفوه منك بدلا من أن يَعْرِفُوهُ من خلال شروح الآخرين، وائذن لى أن أقول إنى كنت واحدا من الذين يجدون هذه المعانى التى حدثتنا بها الآن حاضرة فى ثنايا كثير من كتاباتك القديمة والجديدة، وكانت تعبيرا دقيقا عن منهج جيلنا وجيل آبائنا فى فهم الإسلام، فقد كانوا - وكنا معهم - نتنفس الإسلام تنفسا ونحيا به فى هدوء واطمئنان، دون أن تملأ مجالسنا ومجالس الآخرين بالكلام الكثير عنه.

وحين أوشكت الزيارة أن تتحول بهذا الحوار العفوى إلى ندوة، تدخل الأستاذ «أحمد فراج» قائلا فى حماسة: كم كنت أتمنى أن يسمع الناس - كل الناس - هذا الحوار

الهادىء حول هذه القضايا الساخنة. وأرجو أن يأذن لى الأستاذ «نجيب محفوظ» بتسجيل هذا الكلام كله مرة أخرى فى ندوة تليفزيونية قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر.. توضع بها النقاط على الحروف، ويعرف الناس، الموافق منهم والمخالف، حقيقة رأى الأستاذ «نجيب محفوظ» الذى عبر عنه الآن، كما عبرت عنه رسالته الوجيزة إلى ندوة الأهرام.

قال الأستاذ «نجيب محفوظ»: إنى شاكر ومقدّر هذا الاهتمام، ولكنى أشفق على نفسى من فتح باب الأحاديث التليفزيونية.. وأنا لا أزال فى نقاهة لا تحتمل مثل هذا المجهود.. ولكنى – بدلا من هذا – أقترح أن يكتب الدكتور أبو المجد هذا الحوار الذى دار كما دار.. وسأكون راضيا عن ذلك كل الرضا..

وفى إطار هذه الرغبة الموثقة بإذن صريح من الأستاذ «نجيب محفوظ» وبشهادة ثلاثة من ضيوفه الكرام.. ولدت فكرة هذا المقال.. الذى هو عندى شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات «نجيب محفوظ» سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويشرعون فى الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرجأ كثيرا من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام.. كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذى يصر به بعض الكتاب على أن يقرءوه فى أدب «نجيب محفوظ» ما يدور فى رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه فى تلك الكتابات، مازحين أنفسهم قوامة لايملكها أحد على أحد، فضلا عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له فى دنيا الكتابة والأدب ما «لنجيب محفوظ» من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التى أنعم بها عليه الله.

أدعو الله أن يتم على أديبنا الكبير نعمة العافية حتى يمسك القلم من جديد مواصلا عطاءه الأدبى الذى يغنى العقل والوجدان، وواهبا ما بقى من عمره المديد – بإذن الله – لتجليه الأمرين العظيمين اللذين أشار إليهما فى رسالته إلى ندوة الأهرام: الدين، الذى به هداية الناس وراحة النفوس، والذى يفىء ألوانا من المحبة والسماحة ودفء العلاقات والتسابق إلى الخير، على حارتنا الكبيرة مصر.. والعلم، الذى تحيا به العقول، والذى هو مفتاح أمتنا، وكل أمة، إلى أبواب المستقبل التى تتزاحم اليوم أمامها شعوب الدنيا كلها لتكون لها مكانة فى ساحته التى تتشكل معالمها الجديدة يوما بعد يوم.

د. أحمد كمال أبو المجد

الأهرام ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤م

وفى الحقيقة أن ما سوف أسوقه فيما يلى ليس تعليقا على هذه الشهادة التى تتصف بالإنصاف، وتحرِّى قول الحق، لأنها تقوم على فهم صحيح، وإدراك متسع، وهى صادرة عن صاحب فكر له فى الدراسات الإسلامية قدم راسخة، وله فى فهم العقيدة الإسلامية نظرات سديدة، ولا يقدم أحكامه إلا بعد أن يحسن الدرس، ويتعمق المسألة، ويحيط بالموضوع من جميع أطرافه، وهو فضلا عن ذلك كله من علماء القانون الأفذاذ، ومن العاملين فى مجاله عملا دائبا متفردا هو موضع التقدير على جميع النطاقات الداخلية والعربية والإسلامية والعالمية.. فأن يقول ما قاله من أنه قرأ الرواية على حقيقتها فلم يجد فيها سوى تصوير صادق، ودعوة مخلصة لضرورة تنقية الإيمان من شوائبه، وإكبار الدين الصحيح على النحو الذى أنزل به، واتخاذه شريعة حياة، ومنهج سلوك، مع عدم الإغفال عن ضرورات العلم، والأخذ بأسبابه فعلى ركيزتين من الدين والعلم يمكن أن ينهضه المجتمع، وترتقى الحياة. وأن هذا هو جوهر رسالة «نجيب محفوظ» سواء فى هذه الرواية أو فى سواها من أعماله الفنية وإبداعاته الرائعة.

* * *